# أقنعة الفرنكفونيَّة

ملف من إعداد: كيرستن شايد وسماح إدريس

ما جذور الفرنكفونيّة؟ أهي حقّاً مجموعةُ قيم ومؤسّسات تَطْمح إلى التنوُّع الثقافيّ، أم «لوزةٌ مُرّةٌ مغطّاةٌ بالشوكولاتة» كما يقول راوول مارك جنار لـ الآداب ولا يهمّها إلاّ حمايةُ المصالح الاقتصاديّة الفرنسيّة؟

أيّ ارتباط بين الفرنكفونيّة المؤسساتيّة والمشاعرِ الفرنسيّة المغتاظة من التدخُّل التجاريّ الأميركيّ، و«الإمبرياليّةِ السينمائيّةِ الأميركيّة،» والهيمنةِ الثقافيّة على «التقاليد المطبخيّة» ذاتها كما يأتي في مقال دايڤيد ألوود؟

أثمة ترابطٌ بين الفرنكفونيّة وأفكار اليمين اللبنانيّ من أجل مزيدٍ من التشويش على عروبة لبنان، كما يَستنتج أسعد أبو خليل؟

هل بالإمكان أن تستفيد دولُ الجنوب من وجود تجمُّع دولٍ وجالياتٍ فرنكفونيّة للوقوف في وجه العولمة الأميركيّة؟ ولكنْ هل يَقف الاتّحادُ الأوروبيّ أصلاً في وجه الهيمنة الأميركيّة على مؤسّسات العولمة، وعلى رأسها منظمة التجارة العالميّة؟ بل هل تتعامل الدولُ الفرنكفونيّة الثريّة بديموقراطيّةٍ وإنسانيّةٍ وتفهُّمٍ مع الدول الفرنكفونيّة الأقلّ ثراءً؟

هذه بعض الأسئلة من بين عشرات أخرى يحاول هذا الملفّ أن يجيب عنها، أو أن يوفِّرَ أُسسًا للإجابة عنها، سواء عُقدتْ قمةُ الفرنكفونيّة في بيروت في موعدها (أواخر تشرين الأول ٢٠٠١) أو أُجِّلتْ.

الآداب

# اللاأميركيَّة الفرنسيَّة* وماكدونالدز

دايفيد ألوود

ترجمة: سماح إدريس

«وُلدتُ في بلادٍ روحُها وسكّانُها ومنتوجاتُها متنوِّعة، ومتعدِّدة، ومتغيِّرة، وبارعة. من الحليب، ذلك الغذاءِ البسيطِ والأوّليّ، نَعْرف نحن الفرنسيِّين كيف نَصْنع أكثرَ من ١٠٠ نوع من الأجبان. وكلُّها جيّدة، وصحيَّة، وقويَّة، وغنيَّة، ومسلِّية. وكلُّها ذاتُ تاريخ، وشخصيَّة، ودَوْر. في هذه البضاعة المعروضة وحدها أتعرَّفُ على عبقريَّةِ بلادي، ومنها أَفْهم أنَّ بلادي أَنْجبتْ عددًا ضخمًا من الرجال العظام في كل المجالات المهنيَّة... إنَّني أنتمي إلى شعبٍ من الفلاّحين زَرَعَ بحبٍّ طوالَ قرونٍ ٥٠ نوعًا مختلفًا من الخوخ، تَجِدُ في كلٍّ واحدٍ منها مذاقًا لذيذًا لا يُمْكن أن يُقارنَ بغيره.»

كَتب دُوهامِلْ[١] هذه الكلمات ضِمْن خطبةٍ لاذعةٍ ليحذِّر الأوروبيِّين، والفرنسيِّين بصورة خاصة، من أنَّهم ما لم يَتَّخذوا خطواتٍ لحماية تقاليدهم وقيمهم وهويّاتهم فإنَّ نظام التصنيع المتقدّم الذي أنْتجه التحديثُ في أميركا سيَطْغى عليها جميعًا. وبعد سبعين سنة من ذلك التحذير مازالت المعركةُ ذاتُها تخاض، ولكنْ هذه المرّة من قِبَلِ قائدِ مزارعين هو جوزيه بوڤيه الذي حَطَّمَ بشاحنته في آب (أغسطس) ١٩٩٩ أحدَ مطاعم ماكدونالدز قبل افتتاحه في بلدته Millau، ليَغْدوَ على الفور تقريبًا بطلاً قوميّاً. وقد أُوقِفَ بوڤيه فترةً وجيزة، ثم قاد وفدًا من مؤيِّديه إلى مؤتمر سياتِلْ الذي عقدتْه منظّمةُ التجارة العالميَّة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩ مُهرِّبًا معه قطعةً من جبنة «روكفور» الفرنسيَّة. وفي تموز (يوليو) ٢٠٠٠ حُوكِم وسط «هيصةٍ» اجتذبتْ ٤٠ ألف شابّ إلى Millau وحظيتْ باهتمام وسائل الإعلام العالميَّة.

في هذه الأثناء راحت المكتبات الباريسيَّة تمتلئ من جديد بعناوين ترثي للمجتمع الأميركيّ سياستَه الخارجيَّة المتعجرفة. من هذه الكتب: **لا شكرًا يا عمّ سام، العالم ليس بضاعةً**، ومَنْ **يَقْتل فرنسا؟ الاستراتيجيَّة الأميركيَّة**، وغيرُها. وقد عَلّق السفير الأميركيّ في فرنسا بالقول: «إنَّ النزعة اللاأميركيَّة اليوم لا تتضمَّن سياسةً محدَّدةً مثلَ العقوبات الإيرانيَّة، بل شعورًا أنَّ العولمة ذاتُ قناع أميركيّ وأنَّها خَطَرٌ على نظرة الأوروبيِّين والفرنسيِّين إلى مجتمعهم... ثمّة إحساسٌ بأنَّ أميركا هي من القوّة بحيث تستطيع أن تَسحق كلَّ ما يَعْترض طريقها.»

ويَبْدو يقينًا أنَّ الحكومة الفرنسيَّة تَشْعر الشعورَ نفسَه. فقد ذُكِرَ أنَّ وزير الخارجيَّة الفرنسيّ أوبِرْ ڤيدرين قال إنَّ دور أميركا في التاريخ الأوروبيّ في القرن العشرين لا يؤهِّلها لأن تتمتَّع بحقوقِ دولةٍ تكون العضوَ السادسَ عشرَ في الاتِّحاد الأوروبيّ. ووحدَها الحكومةُ الفرنسيَّةُ وَصَفتْ بشكلٍ صريحٍ ولادةَ الأُورو بأنَّه ترياقٌ لقوّة الدولار.

«من المهمّ أن نَفْهم لِمَ تسرَّبتْ ضجَّةٌ جديدةٌ إلى تحذيرات فرنسا من القوَّة الأميركيَّة،» هكذا عَلَّقت الطبعة الأوروبيَّة من **وول ستريت جورنال** في آخر شباط (فبراير) ١٩٩٩. ورأى المحاوَرون في هذه الجريدة أنَّ المشكلة تعود إلى شعور النُّخب الفرنسيَّة بعدم الأمان. ففِئْنةُ الأزياء الأميركيَّة في أعينِ أبناءِ هذه النُّخب، وإغراءُ الوجبات السريعة في أعين شبابها، وإغواءُ هوليوود لجمهور المشاهِدين في أوساطها، جعلتْ تلك النُّخَبَ تبدو في الثقافة والسياسة مطوَّقةً ومتخطَّأةً ومتجاوَزةً أكثرَ فأكثرَ. ذَكَرَ آلان فرانْشون، وهو كاتبُ افتتاحيّات في جريدة **لوموند** الفرنسيَّة، «أنَّ الحكومة الفرنسيَّة، والنُّخَبَ الفرنسيَّة، تُدْرك أنّ الثقافة، بالبنط العريض، معركةٌ تَخْسرها يومًا بعد يوم. وهي تغار كثيرًا من قدرة

* ـ French Anti-Americanism: نزعة العداء الفرنسيَّة للهيمنة الاقتصاديَّة والثقافيَّة والسياسيَّة الأميركيَّة. (م)

١ ـ جورج دوهامِلْ Duhamel (١٨٨٤ ـ ١٩٦٦): كاتبٌ ومعلّقٌ فرنسيّ. (م)

فرنسا في مواجهة العولمة المؤمركة: الحريّة، المساواة، جبنة روكفور!

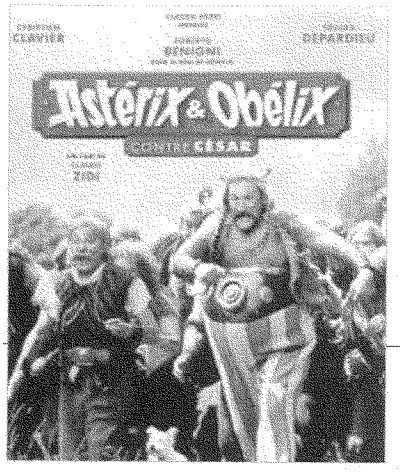




استريكس: صورة المقاومة الفرنسيَّة للإمبرياليَّة السينمائيَّة الأميركيَّة

أميركا على الإغراء. وفي مواجهة ذلك، على المرء أن يُحارِبَ، حتى إنْ تَعرَّضَ لخطرِ أن يبدو سخيفًا.»

مؤخّرًا أصرّ جاك لانغ، وهو الرجلُ الذي أَضْفى أهميَّةً جديدةً على هذه الأمور أثناء سنوات عمله وزيرًا للثقافة في عهد الرئيس ميتران، على ضرورة تعايُش الاقتصاد والثقافة في فرنسا، إنْ كان لإرث هذه الأُمّة ألاّ يتضاءل إلى درجة العدم، وبحيث تكون فرنسا في وضعٍ أفضلَ لـ «الرهان على المستقبل.» وإذ دعا إلى إنشاء وزارةٍ جديدةٍ «للشؤون الثقافيَّة الخارجيَّة،» طالبَ محطَّاتِ التلفزيون الفرنسيَّة ببذل المزيد من الطاقة والمزيد من الانفتاح والمزيد من بناء الصِّلات الدوليَّة. كما طالب ببناءٍ متدرِّجٍ صادقٍ لهويّةٍ أوروبيّةٍ مستندةٍ إلى «الخيالِ المبدع والشبابِ والروح.» وقال لانغ إنَّنا أمام خيارَيْن: إمّا أن يَبْقى العالَمُ القديمُ مجمَّدًا في ظلال الثقافة الأميركيَّة، وسرعان ما سيَنْجم عن هذه الحال خضوعٌ سياسيّ عالميّ للسياسة الأميركيَّة أيضًا؛ وإمّا أن تتمكّن أوروبا ـ بدفعٍ جبّارٍ من فرنسا ـ أن تبيِّن لكلّ الشعوب الطامحة إلى إيجاد بديلٍ من الهيمنة الأميركيّة أنَّ «الغرب متعدِّد؛ وهذه رسالةُ أَمَل.»

يَعْتقد دومينيك موازي Moisi، وهو خبير فرنسيّ بارز في علاقات فرنسا الدوليَّة، أنَّ على الفرنسيِّين، إذا أرادوا أن يَحُلُّوا مشكلةَ الهويّة ـ وهي مشكلة أساسيّةٌ في الأمّة وتتمثَّل في الخيار بين بناء «وطنٍ عصريّ وطبيعيّ» ووطنٍ مختلفٍ بل ومميَّز ـ أنْ يتوقّفوا عن نَدْب العولمة ودَوْر أميركا فيها، وأن يتخلَّوا عن نزعة الحمائيَّة الثقافيَّة،* وأن يَعْملوا بدلاً من ذلك على إبداع رسالةٍ خاصَّةٍ بهم: «إنَّ ما ينبغي على فرنسا أن تسْعى إلى الحفاظ عليه، ما إنْ تَعترف بهزيمتها في معركة اللُّغة [أمام الانكليزيّة]، هو سياقُ رسالتها وطرافتُها لا الوسيطُ الذي تمرّ عَبْره.»

ولكنّ جان ماري غيهينو Guehenno، وهو خبيرٌ في علاقة الدولة بالهويّة القوميَّة، متشائم حيال حظوظ إعطاء هذه الاستراتيجيَّة فرصةً للعمل. وهو يَكْتب أنَّ اللاأميركيَّة تتعاظم على الأرجح «برغم ادّعاء العكس، وبرغم نجاح الثقافة الأميركيَّة في أوساط الشعب الفرنسيّ.» ويقول إنَّ هذا تطوُّر خطير يَعْزل فرنسا ويشجِّع الناسَ على «الانسحاب إلى عالمٍ من الأوهام تَبْدو فيه الفرنكفونيَّةُ وكأنَّها تتصدّى للأنكلوساكسونيِّين، تمامًا كما يواجهُ أستريكس الإمبراطوريَّةَ الرومانيَّة.» ولا عجب أنَّه بعد شهورٍ فقط من هذا التحذير، وفي ٣ شباط (فبراير) ١٩٩٩ تحديدًا، أَنْتجت الصناعةُ السينمائيَّةُ الفرنسيَّةُ، وسطَ جوٍّ مفعم بالاستحسان والتهليل، أغلى إنتاجٍ في حياتها: «أَسْتِريكس وأوبليكس ضدّ قيصر.» لقد كان هذا الفيلم، كما قالت **لوموند**، إنتاجًا فائقًا، مثَّلَ تمامًا صورةَ المقاومة الوطنيّة الفرنسيّة للإمبرياليّة السينمائيّة الأميركيّة.

إنَّ النزعة اللاأميركيَّة هي بالتأكيد شكلٌ غامضٌ من أشكال الردّ على حضور أميركا قوةً كبرى في أوروبا. وكثيرًا ما تَعْكس تجلِّياتُها الأكثرُ إيديولوجيَّةً النَّمطَ التبشيريَّ الذي تَعْرض عَبْره أميركا دروسَ تاريخها أمام العالم. فحين توصفُ تجربةٌ قوميَّةٌ ما بلغةِ «الاستثنائيَّة والفرادة،» فلا عجب أن يَرْفض أعداؤها نَمطَ حياتها ورسالتَها ورموزَها وأعمالَها. وفي ما يخصّ فرنسا بالتحديد، على نحوِ ما يَكْتب ريتشارد كُوزلْ الأميركيُّ المختصُّ بالشؤون الفرنسيَّة:

«فإنّ أساس النزعة اللاأميركيَّة ثقافيّ، ويتمحور حول مفهوم حماية الحضارة ونشرها. ومع أنّ الخلافات الفرنسيَّة ـ الأميركيَّة في العلاقات الدوليَّة وفي أمور التجارة والاقتصاد ستواصل إثارةَ الانتقاد الفرنسيّ للقوَّة الغربيَّة الأميركيَّة المهيمنة، فإنّ لُبَّ المقاومة

* ـ إزاء: cultural protectionism. (م)

# اللاأميركيّة الفرنسيّة وماكدونالدز

الفرنسيّة يَنْبع من إحساسٍ بالاختلاف الفرنسيّ وبالتفوُّقِ الفرنسيّ وبالرسالةِ الكونيّة الفرنسيّة ـ وكلُّ هذه الأمور يَجْمعها مصطلحُ ' الحضارة .' وإنّ النزعة الكونيّة المُضْمَرَة في مفهوم الحضارة هذا تُنْتج تنافسًا مع الولايات المتحدة، لإحساس هذه الأخيرة بأنّ لديها هي الأخرى رسالةً كونيّة.»

غير أنّ اللاأميركيّة المعاصرة أكثرُ من مجرّد موقف إيديولوجيّ مزعوم. فخلفها تَقْبَعُ رزمةٌ من الصور والتنميطات التي جمّعها الزائرون الأوروبيُّون عن «العالم الجديد» على امتداد القرن التاسع عشر. ثم جاء تطويرُ أميركا في عشرينيّات القرن العشرين لمثالٍ تحديثيّ حيويّ (من الناحية الإيديولوجيّة) وتثويريّ. كما أنّ التجربة المشتركة التي جمعتْ أوروبا وأميركا في حربيْن عالميّتيْن اثنتَيْن وفي حربٍ باردةٍ خلّفتْ هي أيضًا إرثًا من المواقف الأوروبيّة حيال أميركا. وبغيرِ هذه السَّوابق والذرائع التاريخيّة كلّها لم يَكُن صعودُ قوّة الولايات المتحدة منذ الحرب العالميّة الثانية ليجتذبَ مشاعرَ الاستياء والعداء التي عبَّرتْ عنها النزعةُ اللاأميركيّة الكلاسيكيّة في بلدٍ مثل فرنسا. والمعادِل الحقيقيّ اليومَ لوضع أميركا بالنسبة إلى «العالم القديم» ليس السلّمَ الدوليّ برعايةٍ بريطانيّة (پاكس بريتانيكا) كالذي ساد في القرن التاسع عشر، وإنّما ما جرى في عشرينيّات القرن العشرين. ففي هذه الفترة راحت الفورديّة،[1] وهوليوود، والجاز، وقاعاتُ الرقص، وأشكالٌ جديدةٌ من الدعاية والتسلية، ونماذجُ الممثلين والمغنّين القُدوة، تَكْتسح أوروبا ما بعد الحرب العالميّة الأولى وتَسْتعدي النُّخَبَ الأوروبيّةَ التقليديّة المنخرطة في مشقّةِ إعادةِ تشكيل قوّتها وشرعيّتها. وكان تعبير Americanism [الأميركانيّة، أو النزعة الأميركيّة] متداولاً في منتصف القرن التاسع عشر، وهو تعبيرٌ أَقَرَّ بإرث أميركا الفريد من المُثُل والتطلُّعات. وبدأ استخدامُ مصطلح «اللاأميركيّة» في عشرينيّات القرن العشرين. كما بدأ التعبيرُ عن الشجون العابرة للمحيط الأطلسيّ في ذلك الوقت ـ كديون الحرب، وتعويضات الحرب، والمنافسة البحريّة، وقوّةِ الثقافة الجُمْليّة الجديدة mass culture ـ بلغةٍ تَرْبط السياسات الأميركيّةَ الداخليّة والخارجيّة بما اعتُبِر نقائصَ هذه الأمة مجتمعًا وحضارةً.

في فرنسا أَثْمر هذا التوجُّهُ النقديُّ الجديدُ حيال أميركا كتبًا قُيِّضَ لها أن تَكْتسب دلالةً مستمرّةً لكونها رَسَمَت الطريقَ لنقد أَثَر أميركا المرجَّح في مستقبل فرنسا. كان أَشْهر تلك الكتب كتابُ دوهامل **مَشاهِد من الحياة في المستقبل** (١٩٣٠). وكان أكثرها حسمًا هو كتاب المعلّق السياسيّ أندريه سيغفريد Siegfried **الأمم المتحدة اليوم**، وهو مناقشة لكلّ المسائل العالقة بين فرنسا والولايات المتحدة في ذلك الوقت. وقدَّم السياسيّ والديبلوماسيّ أندريه تارديو Tardieu كتاب **أمام العائق: أميركا ونحن**، في حين كان عملُ الصحافيّ المهتمّ بأخبار الأعمال لوسيان روميه Romier **مَنْ سَيكون السيّد: أوروبا أم أميركا**؟ نقدًا شاملاً للمجتمع الجُمْليّ ولمسؤوليّة أميركا عن نشره. كانت تلك الكُتُب كلُّها أكثرَ الكتب مبيعًا، ودشَّنَتْ نَسَقًا شمل فيما بعد كتابَ ران اتْيَمْبل Etiemble **هل تتحدَّث الفَرَنْكليزيّة**؟ Parlez-vous Franglais? (١٩٦٤) وكتابَ جان جاك سيرڤان ـ شريبرْ Schreiber **الهزيمة الأميركيّة** (١٩٦٧). أولُهما هو الذي بدأ طرحَ السؤال الذي نوقش طويلاً، وهو سؤالُ اللُّغة، ودعا إلى حملةٍ تُنقذ التراثَ الثقافيَّ الفرنسيَّ من «الكابوس الأميركيّ المكيَّف،» تمامًا مثلما

١ ـ نسبة إلى هنري فورد، الذي أسّس شركةَ فورد للسيّارات، واستطاع عام ١٩١٣ أن يَبيع طراز T بـ ٥٠٠ دولار فقط بسبب الإنتاج الجُمْليّ. (م)

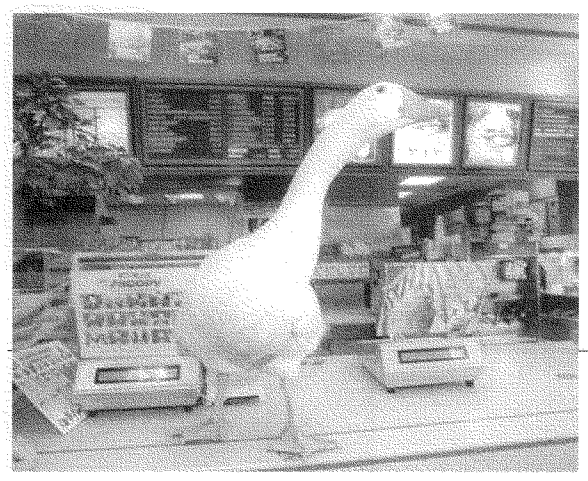

عام ١٩٩٩ حطّم بوڤيه أحد مطاعم ماكدونالدز وأدخل إليه حيواناته الداجنة: لماذا نريد طعامًا مستوردًا؟

كان شارل دوغول يَفْعل في العلاقات الدوليَّة والاقتصاد. أما كتاب الثاني، وهو أعظم أثرًا من سابقه، فدعا إلى أَوْرَبَةِ السِّمات التقنيَّة والاجتماعيَّة الأنجح في أميركا. كما أنَّه اخترَعَ مجلةَ **لِكْسپرِسْ**، وهي نسخة فرنسيَّة عن مجلتيْ **تايم** أو **نُوزويك** الأميركيَّتيْن. ومن ستينيَّات القرن العشرين أيضًا صَدَرَ نقد جذريّ عالمثالثيّ للإمبرياليَّة الأميركيَّة، عَبَّر عنه أبلغَ تعبيرٍ ملحقُ **لوموند ديپلوماتيك**، وهو ملحق جريدة **لوموند** للشؤون الدوليَّة، ويواصِل اليومَ ذلك التقليدَ.

تسعينيَّاتُ القرن العشرين أعادت النقاشَ إلى أثر إنتاج هوليوود السينمائيّ والتلفزيونيّ، فأَحْيَت سجالاً كان قد أثار مشاعر قويّة من الحمائيّة الثقافيَّة في العشرينيَّات والأربعينيَّات. وفي مباحثات الـ «غات» حول التجارة العالميَّة عام ١٩٩٣ قادت الصناعةُ الفرنسيَّةُ السمعيَّةُ البصريَّةُ ـ مدعومةً بشدّةٍ من الرئيس الاشتراكيّ الفرنسيّ والحكومةِ المحافظة ـ جهودًا من أجل سَحْبِ بضائعها من إطار المفاوضات، على أساس أنّ التجارة الحرّة تُعطي الأفضليَّةَ بشكلٍ ثابتٍ للمُنْتِجِين الأقوى. وأَعْلَن ميتران في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٣ أنَّه «لا يَنْبغي» لأيّ دولةٍ بعينها «أن تتحكَّم بصُوَرِ العالَم أجمع. إنَّ ما يتعرَّض للخطر هو الهويَّةُ الثقافيَّةُ لأُمَمِنا، وحقُّ كلّ شعبٍ في ثقافته الخاصَّة به.» ولئن هوجم فيلم «جوراسيك پارك» لكونه تهديدًا للهويّة القوميّة الفرنسيَّة، على نحوِ ما فعَلَ قبل شهور من ذلك التاريخ وزيرُ الثقافة الفرنسيّ، فإنَّ ذلك لا يعود ببساطة إلى اختلال ميزان القوّة الاقتصاديَّة بين صناعة السينما الفرنسيَّة وهوليوود. بل إنَّ موقفًا كهذا عَكَسَ إحساسًا بأنّ فرنسا تُكْرَهُ على التخلّي عن «مفهومٍ للقوميَّة يَفْترض سيادةَ الأمَّة على ثقافتها،» بحسب ما كتبت المؤرّخة الأميركيَّة ڤيكتوريا دي غراتسيا في حديثها عن أثر هوليوود في العشرينيَّات.

**المعركة تنتقل إلى المعدة**

إلى زمنٍ قريب كانت معركةُ السيادة الثقافيَّة محورُها اللُّغاتُ والصُّوَرُ والتوقُّعاتُ، وعقولُ الأجيال الشابة في كل بلد. ولكنْ يبدو الآن أنّ المعركة تنتقل إلى المَعِدة. ولقد واجهتْ سلسلةُ مطاعم ماكدونالدز، بوصفها هدفًا للاستغلال المعمَّم للتدخّل التجاريّ الأميركيّ في فرنسا، مستوياتٍ من العدوانيَّة لم يسبق أن أَزعجتْ سَلَفَيْها في الأربعينيَّات والخمسينيَّات: مجلةَ **ريدرز دايجست**، وشركةَ كوكاكولا. فمع أنَّ محلات بَيْع الوجبات السريعة لاقت معارضةً من هامستيد (إنكلترا) إلى هامبورغ (ألمانيا) ومن فلورنس (إيطاليا) إلى كراكو (بولندا)، فإنَّ أيًّا منها لم يَشْهد مقتلَ أحد موظَّفيها في هجومٍ إرهابيٍّ على نحوِ ما حدث في مطعم ماكدونالدز في برتانْي (شماليّ فرنسا) في نيسان (أبريل) ٢٠٠٠.

في فرنسا كانت شركةُ ماكدونالدز قد افتتحت أوّلَ مطعمٍ لها في مدينة ستراسبور عام ١٩٧٩، وبعد ٢٠ سنة كان هناك ٧٩٠ مطعمًا لماكدونالدز تَعْمل في فرنسا، وبازدياد بلغتْ نسبتُه حوالى ٨٠٪ كلَّ سنة منذ منتصف العقد الثامن. وأَعْلن التقرير السنويّ لماكدونالدز عام ١٩٩٩ أنَّ أوروبا كانت أَنْجَحَ قطاعاتها في العالم قاطبةً، وأنَّ فرنسا كانت واحدًا من أكثر بلدان أوروبا مبيعًا لمأكولاتها. في هذه الأثناء أُغلقت مئاتٌ من الحانات والمطاعم الفرنسيَّة الصغيرة التقليديَّة في طول البلاد وعرضها، ضحيةً لتبدُّل الأذواق ولنظام الضرائب العُقوبيّ الذي ـ بحَسْب مظاهرةٍ لرؤساء الطبَّاخين في باريس في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩ ـ انحاز بشكل مباشر لصالح صناعة الوجبات السريعة.

تبيَّن تجربةُ ماكدونالدز في فرنسا كيف أنّ رموزًا صغيرةً نسبيًّا من رموز القوّة الاقتصاديَّة الأميركيَّة هي التي مايزال يُتَوَقَّع، بسبب وجودها البارز للعيان وحضورها الطاغي وحيويَّتِها، أن تتحمَّل العبءَ الأعظم للاستياء الناتج عن العداء للأمريكانيَّة، فيما

# اللاأميركيَّة الفرنسيَّة* وماكدونالدز

يحاول السكّانُ والمستهلِكون المحليُّون أن يَحْشدوا تأثيرَهم ضدّ قوة الشركة التي كانت ذاتَ يوم «متعدِّدةَ الجنسيَّات» فغدت اليومَ معولمةً (كونية). عام ١٩٩٩ كانت تظاهرةُ بوڤيه ضدّ ماكدونالدز قد أَوْقد شرارتَها إدراجُ جبنةِ «روكفور» ضمن مجموعة أخرى من البضائع الأوروبيَّة التي طالتها العقوباتُ الأميركيَّة عبر إخضاعها لتعرفاتِ استيرادٍ عالية احتجاجًا على الرفض الأوروبيّ لشراء كميّات غيرِ محدودة من لحم البقرِ المنمّى بالهورمونات. وتتطلَّب صناعةُ جبنة «روكفور» ذلك النوعَ من الحليب غيرِ الملوَّث الذي تقدِّمه مزرعةُ جوزيه بوڤيه؛ ولكنْ وفقًا لشروط العولة «يستطيع الأميركانُ أن يُلغوا عملَكَ بكبسةِ زرٍّ كومبيوتر،» على نحوِ ما قال هذا البطلُ القوميُّ الفرنسيُّ الجديد لأحد المحاورين التلفزيونيّين. في هذه الأثناء انتقدتْ **لوموند** أميركا «التي تهدِّد هيمنتُها التجاريَّةُ الزراعةَ الفرنسيَّة، وتخرِّب هيمنتُها الثقافيَّةُ على نحوٍ ماكرٍ التقاليدَ المطبخيَّةَ التي تشكِّل الومضاتِ المقدَّسةَ للهويَّة الفرنسيَّة.»

## اللاأميركيَّة: صورة الذات

كلّما التقى القديمُ والحداثيّ وما بعد الحداثيّ في أوروبا المعاصرة يُرجَّح أن يُعاد تمثيلُ نسخةٍ ما من تلك المواجهة الطويلة والحادّة والمعقّدة التي حدثتْ في القرن العشرين بين الثقافة الجُمْليَّة الأميركيَّة والأوروبيَّة. ومع صعود الموادِّ الغذائيَّة فجأةً إلى رأس المجالات المتصارَعِ عليها، منحِّيةً جانبًا سِلعًا أخرى كالأفلام والبضائع التكنولوجيَّة والأعمالِ واللُّغة والتلفزيون والدُّرْجة الثقافيَّة، يَغْلب أن تتّخذ المواجهةُ في المستقبل نكهةً أكثرَ مرارةً. وفي نقاش جرى عام ١٩٨٨ شدّدت المتخصِّصة الفرنسيَّة البارزة ماري فرانس توانيه Toinet على ضرورة التمييز بين التجلّيات الخارجيَّة للمشاعر اللاأميركيَّة من جهة، وجذورِ تلك التجلّيات من جهة ثانية. ورأتْ أنَّ «المهمَّ في افتتان الفرنسيِّين بالنزعة الأميركيَّة ورفضِهم لها أيضًا» إنّما يعود إلى أنَّ «الفرنسيِّين لا يُجْرون في هذه الحال نقاشًا عن الولايات المتحدة بقَدْرِ ما يناقشون أنفسَهم، ومجتمعَهم، وأهدافَهم، وأساليبَهم هُمْ. إنَّه، إذا جاز التعبير، نقاشٌ فرانكو ـ فرنسيّ، حيث تُستخدم الاحتجاجاتُ على أميركا ـ وهي احتجاجاتٌ فجَّةٌ غيرُ ناضجة في الغالب ـ مجرَّدَ أعذارٍ أو ذرائع. إنَّ الفرنسيِّين في الواقع إنَّما يَسْتخدمون الولايات المتحدة مرآةً يَنْظرون فيها إلى أنفسهم.»

غير أنَّ الضغوط الناجمة عن التغيُّرات الاجتماعيَّة والتكنولوجيَّة، وعن اللاتوازن في القوّة الثقافيَّة بين أميركا وفرنسا، إنَّما هي ضغوطٌ حقيقيَّةٌ اليوم مثلما كانت حقيقيَّةً في العشرينيَّات. ومع أنَّ النزعة اللاأميركيَّة في الفكر السياسيّ والثقافيّ الفرنسيّ لا تُمْكن مقارنتُها بأيِّ شكلٍ من الأشكال بعداوات فرنسا التاريخيَّة للبريطانيِّين والألمان، فإنَّها مازالت موجودة. ومع حلول القرن الحادي والعشرين تبقى فرنسا أكثرَ الدول قلقًا من القوّة الأميركيَّة في الحياة الدوليَّة. وإنَّنا إزاء نقاشٍ يحاول أن يَرْبط أبعادَ هذه القوّة الأميركيَّة السياسيَّة والاقتصاديَّة والثقافيَّة الجُمْليَّة بالأسئلة المعاصرة الكبرى عن السيادة والعولة، وعن الهويّة والحداثة.

**دايڤيد ألوود**

أستاذ مشارك في التاريخ الدوليّ في جامعة بولونيا. من مؤلفاته: **اللاأميركيَّة في أوروبا الغربيَّة: منظورٌ مقارن** (جامعة جونز هوپكنز، مركز بولونيا، ١٩٩٩). وقد نُشر هذا المقال أصلاً في مجلة History Today، عدد شباط (فبراير) ٢٠٠١.

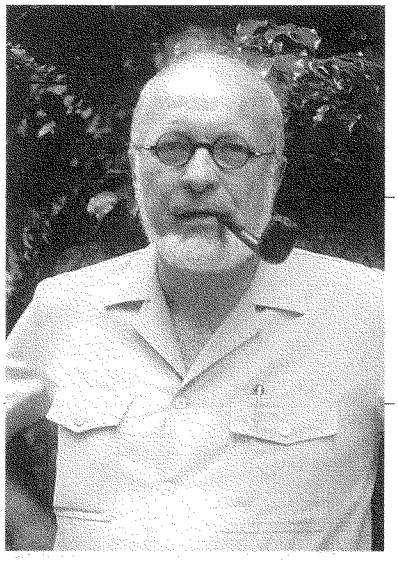

# حوار مع راوول مارك جنار عن الفرنكفونيّة*

راوول مارك جنار

**سماح إدريس**: أتستطيع أن تُعطي القارئ العربيّ خلفيّةً عامةً عن الفرنكفونيّة، فكرةً وتطبيقًا؟

**جنار**: أودّ أولاً أن أميِّز بين الثقافة الفرنسيّة من جهة، والفرنكفونيّة من جهة ثانية. فالثقافة عامةً ملْكٌ للعالم أجمع، لا لدولة بعينها بل ولا لشعبٍ بعينه. الثقافة قد تكون ثقافةَ شعوبٍ متعدِّدة. بإمكاننا أن نجد يابانيِّين أو أميركيِّين مفتونين بكتّاب فرنسيِّين، تمامًا مثلما أنّ بإمكاننا أن نجد فرنسيِّين أو بلجيكيِّين مفتونين بشكسبير مثلاً. أنا أؤمن أنّنا في هذا العالم الكبير نستطيع أن نحبّ ثقافات مختلفة، وأنّ الثقافات لا حدودَ جغرافيّةً لها. فنحن كأوروبيِّين، على سبيل المثال، مَدينُون كثيرًا للثقافة العربيّة؛ ولو لم تُوجد هذه الثقافة لَمَا وَصلَنا على الأرجح كلُّ ذلك الماضي اليونانيّ الرومانيّ العريق، لأنّ هذا الماضي جاءنا بأكمله تقريبًا عبر وسيطٍ هو الحضارة العربيّة. إذن، أعتقد أنّ علينا أن نكون واضحين. فأنا لا أريدكم أن تظنُّوا أنّني حين أنتقد الفرنكفونيّة أَنْتقد الثقافة الفرنسيّة.

وأمّا الفرنكفونيّة فهي جهازٌ مؤسساتيٌّ: إنّها أداةٌ سياسيّةٌ لتحقيقِ إمبرياليّةٍ ما. ثمة ما يمكن أن نسمّيه إمبرياليّة ثقافيّة فرنكفونيّة أو أنكلوساكسونيّة، وهما تتصارعان في بعض الأحوال. وقد عشتُ هذا الصراع في ڤيتنام وكمبوديا حيث مناصرو اللُّغة الإنكليزيّة ومناصرو اللُّغة الفرنسيّة حاولوا أن يَفْرضوا هذه اللُّغة أو تلك على الكمبوديِّين، في حين يُفضِّل هؤلاء أن يتحدَّثوا الكمبوديّة. وأثناء عملي في الأمم المتحدة كان لافتًا أن أُلاحظ أنّ الإجراءات الثقافيّة غالبًا ما كانت أشبه بمعارك حقيقيّة بين التأثيرات الفرنسيّة والتأثيرات الأنكلوساكسونيّة. وقد سبق أن تحدثتُ في مكانٍ آخر عن السِّجال بين القانون العامّ common law والقانون الأوروبيّ (وهذا الأخير سُمِّي خطأً «القانونَ الفرنسيَّ» مع أنّه أيضًا قانونُ اليابان والدول الإسكاندينافيّة وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وغيرها؛ إنّه القانون الذي تحدَّر إلينا من القانون الرومانيّ، وهو أكثر من مجرّد قانون فرنسيّ حتى لو تباهى به الفرنسيُّون وكأنّه رمزٌ لهم). هناك في الحقيقة مفهومان مختلفان للنظام الاجتماعيّ وللعدل، مفهوم القانون العامّ ومفهوم القانون الأوروبيّ. ولكنّ بحث المفهومَيْن يتراجع لصالح خلاف الناس على أيّ جانب ثقافيّ لغويّ يَنْتمون. في حين أنّه لو كانت الفرانكفونيّة حقّاً «طَبْعةَ» البلدان الصغيرة، مثل تلك الأقسام التي تتحدَّث الفرنسيّة من سويسرا أو من بلجيكا أو من كندا، ولو لم يكن في وسط هذه الفرنكفونيّة المأسسة بلدٌ ذو ماضٍ كولونياليّ هائل مثلُ فرنسا، لربما كانت الفرنكفونيّة أداةً للتعاون الثقافيّ بريئةً ولطيفةً. ولكنّ واقع الأمر ليس كذلك.

**كيرستن شايد**: من اللاّفت أنّك حين تقرأ عن الفرنكفونيّة فإنّ الفكرة التمهيديّة التي تطالِعُكَ هي أنّ قادةً أفريقيِّين ثلاثة هم الذين أنشأوها: بورقيبه (تونس) وسنغور (السّنغال) وديوري (النيجر). أيْ أنّ الصورة الرسميّة للفرنكفونيّة تَسْعى دائمًا إلى إعطاء مظهرٍ عالمثالثيٍّ لها.

**جنار**: إنّه مظهر فحسب. لا أشكّ إطلاقًا أنّ ليوپول سنغور كان يَعْشق الثقافةَ الفرنسيّة؛ فهو تَعلّم الفرنسيّة وتَثقَّف بها وكَتَبَ بها. وأَعْرف أيضًا أنّ أمير كمبوديا، نورودوم سيهانوك، مفتونٌ بالثقافة الفرنسيّة ويسمّي نفسه فرانكفونيّاً. ولكنّ هذا هو سببُ حديثي عن الفرنكفونيّة مؤسَّسةً. فبالتأكيد هناك أشخاص ومستعمَراتٌ سابقة

* - أُجري في بيروت في ١٨ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١. وقام بالحوار: كيرستن شايد، وقاسم عزّ الدين، وسماح إدريس.

# حوار مع راوول مارك جنار عن الفرنكفونيّة

تَرْغب في أن تبقى الثقافةُ الفرنسيَّةُ رصيدًا لها في ميزان الربح والخسارة الناجم عن الاستعمار. ولكنَّ الفرنكفونيّة كمؤسَّسة إنَّما هي أداة في خدمة الدولة الفرنسيَّة والمصالح الاقتصاديَّة الفرنسيَّة. ومن وجهة النظر هذه عليّ أن أميِّز بين الدول الفرنكفونيَّة التي تَنْتمي إلى العالم الغربيّ، وتلك التي هي في الحقيقة مستعمَراتٌ سابقة. وسببُ تمييزي هذا هو أنَّ العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر مازالت مستمرّة، ويا للأسف. وهذا هو ما يَجْعل الفرنكفونيّةَ المأسسة مشروعًا منحازًا في رأيي.

باستطاعتي التأكيد أنَّ الاتفاقات المُبْرمة باسم الفرنكفونيّة هي التي حَقَّقتْ في النهاية إرادةَ فرنسا السياسيَّة. دَعُوني أعطِ مثلاً آخر، لا من الفرنكفونيّة بل من مجالٍ آخر مرتبطٍ به كثيرًا، وهو العولمة. فلنأخذ الاتفاقيَّات المبرَمة بين دول الاتّحاد الأوروبيّ والبلدان الأفريقيّة والكاريبيّة والپاسيفيكيّة ACP. لقد لعبتْ فرنسًا دورًا هامّاً في هذه الاتفاقيَّات لأنَّ معظم الدول الأفريقيَّة والكاريبيَّة والپاسيفيكيّة كانت مستعمراتٍ فرنسيَّةً في السابق. بعضُها كان مستعمراتٍ بريطانيّةً في الماضي، ولكنْ لمّا كانت بريطانيا العظمى غيرَ منضوية في بادئ الأمر في الاتّحاد الأوروبيّ فقد ملكتْ فرنسا ـ وفرنسا وحدَها ـ زمامَ الأمور. في هذه الاتفاقيات ـ وقد سَبَقَ أن قمتُ بدراسةٍ معمّقةٍ لها، وهي اتفاقيَّاتٌ جُدِّدتْ العامَ الماضي تحت اسم «اتفاقيَّات كوتونو» ـ هناك ثلاثُ موادّ (٤١ و٤٦ و٦٧) عَبْرها تَفْرض أوروبا، ومن ثمَّ فرنسا أيضًا، على هذه البلدان اتفاقياتِ منظّمة التجارة العالميّة نفسَها: الاتفاقيّة المتعلّقة بالملْكيّة الفكريّة (رقم ٤١)، والاتّفاقيّة المتعلّقة بخصخصة قطاع الخدمات المملوك من قِبَلِ الدولة (رقم ٤٦)، وخطّة صندوق النقد الدوليّ المتعلّقة بإعادة الهيكلة البنيويّة (رقم ٦٧). من خلال هذه الموادّ الثلاث، فَرَضَ الاتّحادُ الأوروبيّ على الدول التي يَزْعم أنَّها «شريكةٌ» له السياساتِ التي تريدها الدولُ الصناعيَّة. وهذا يَجْعلني لا أتردَّد في الاعتقاد بأنَّ الفرنكفونيّة المأسسة أداةٌ من أدوات الإمبرياليَّة الفرنسيَّة. إنَّ الاستعمار لم يعد يرتدي الثيابَ القديمة كالتي ارتداها في الماضي ـ وهذا يَنْطبق على سياسة بلجيكا في الكونغو أيضًا. الاستعمار هنا لم يَعُدْ يحتلّ الأراضي والسكّان، ولكنَّه باستخدامه تقنياتٍ أكثرَ تطوُّرًا، تجاريَّةً أو ماليَّةً ولاسيَّما تلك المتعلِّقة بمسألة الديون، يُبْقي الدولَ في حالٍ من التبعيّة. ما آسَفُ له هذه الأيام هو أنَّ الفرنكفونيّة تقدِّم زيّاً ثقافياً لهذه التبعيّة. إنَّ الفرنكفونيَّة نوعٌ من التغليف emballer لشيءٍ آخر؛ ويُمْكن مقارنتُها ـ إنْ شئتم ـ بحبَّةِ لوزٍ شديدةِ المرارة ملبّسةٍ تمامًا بالشوكولاته! أو أنَّ الفرنكفونيَّة هي قليل من الشوكولاته يُغريك بابتلاع الملبَّسَةِ برمَّتها. وتحاول الفرنكفونيَّةُ المأسسة أن تُظْهر لك أنَّها مِنْ عَمَلِ دول الجنوب التي تتحدَّث الفرنسيَّةَ جزئيّاً أو كليّاً. وهذا هو السبب بالتأكيد لإتيان الفرنكفونيَّة ببطرس بطرس غالي ليكون المديرَ العامّ للمنظَّمة العالميَّة للفرنكفونيَّة. إنَّ الوجه العلنيّ للفرنكفونيَّة هو لرجلٍ من الجنوب. وبهذا الوجه لا يعود الممثّلُ الأساسيُّ هو فرنسا. غير أنَّ فرنسا هي التي تموِّل مؤسسات الفرنكفونيّة (رغم أنَّ كندا والكيبك تموِّلانها هما أيضًا إلى حدٍّ أقلّ بكثير). ومِنْ خبرتي بالموظَّفين البلجيكيِّين الذين يَعْملون في تلك المؤسَّسات، وممّا أَخْبروني إيّاه مئات المرات، أودّ أن أقول إنَّ فرنسا في مؤسَّسات الفرنكفونيَّة إمبرياليَّةٌ ومتعجرفة أُسْوةً بالولايات المتحدة في المنظَّمات الدوليَّة المختلفة. إنّ الأمر متشابه في الحالَيْن، وإنْ على نطاقٍ محدود: فالعجرفة واحدة، وإرادةُ فرض الرأي على الآخرين واحدة. إنَّه التصرُّف ذاتُه، وإنْ بدرجة أقلّ لأنَّ فرنسا دولةٌ نصفُ قويَّة اليوم بالمقارنة مع الولايات المتحدة التي هي قوَّةٌ عظمى!

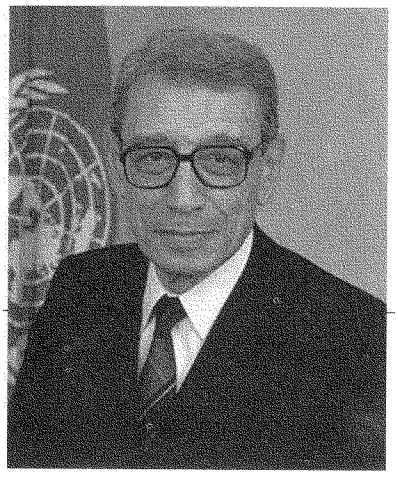

الوجه «الجنوبيّ» للفرنكفونيّة الشماليّة!

**شايد**: تَذْكر أديل كِنْغ، وهي أستاذة في جامعة بال، أنَّ موظفًا حكوميًا فرنسيًا قال إنَّ تغيير إحدى الوزرات من «وكالة التعاون الثقافيّ والتكنولوجيّ» إلى «الوكالة الدوليّة للفرنكفونيّة» لا معنى له، لأنَّ سبب إعطاء الاستقلال للمستعمرات الفرنسيّة هو «لعدم تحويل سكّان هذه المستعمَرات إلى مواطنين فرنسيّين.» وتَقترح كنغ أنَّ الفرنكفونيّة طريقةٌ لجعل المستقلّين حديثًا يأتون إلى فرنسا دون أن تكون فرنسا مسؤولةً عنهم كمواطنين. هم يريدون الاتّحاد مع فرنسا، ولكنّ وسيلة الاتّحاد لم تَعُد الاتّحاد الفرنسيّ بل الفرنكفونيّة. وأنتَ أيضًا يا راوول تحاجج بأنَّ الفرنكفونيّة تغليف جديدٌ للاستعمار، ولكنْ هل تستطيع أن تُعْطي مثالاً محدَّدًا على ذلك ـ مثلاً لماذا يَنْبغي على الناس أن يكونوا مهتمّين بالثقافة الفرنسيّة وأن يتحدّثوا بالفرنسيّة لكي يُبْرموا اتفاقاتٍ تفيد فرنسا اقتصاديًا؟ ما هي الصلّة بين الفرنكفونيّة وشراءِ سيارات «رينو» الفرنسيّة، أو استيرادِ نفطِ «توتال» الفرنسيّ، أو بيعِ المنتوجاتِ الزراعيّة الجنوبيّة إلى فرنسا؟

**جنار**: أعتقد أنَّ استغلال الاهتمام الموضوعيّ الذي يُبْديه الإنسانُ غيرُ الفرنسيّ بالثقافة الفرنسيّة يَلْعب دورًا هامًا في تسهيل العلاقات بين فرنسا والدول الفرنكفونيّة الأخرى. فالعلاقات ستكون أسْهل إذا التقى الفرنسيُّون وزيرًا من ڤيتنام أو السنغال يَتَكلَّم لغتَهم ويُحِيل على مراجعهم الثقافيّة والحضاريّة نفسها. ولكنْ حتى حين يلْتقي الوزراء باسم الفرنكفونيّة، فما هو المعروض على جدول أعمالهم؟ ومَنْ يسافِر معهم؟ إنَّ مَنْ يسافر معهم هم رجالُ الأعمال، ليسوّقوا هذه البضاعةَ الفرنسيّةَ أو تلك. صحيح أنَّ رجال الأعمال لا يحتاجون كثيرًا إلى لغةٍ بعينها؛ فمن المعروف أنَّهم يتحدَّثون الإنكليزيّةَ إذا احتاجوا إلى الإنكليزيّة، أو الصينيّةَ إذا احتاجوا إلى الصينيّة. ومع ذلك فإنَّ الفرنكفونيّة هي وسيلةٌ لاستخدام ما هو إيجابيٌّ مسبّقًا، أي الثقافةُ الفرنسيّة، بل هي استغلالٌ لما هو جديرٌ بالاحترام، أيْ حبُّ الثقافة الفرنسيّة، داخل البلدان التي كانت مستعمَراتٍ فرنسيّةً سابقةً وتتحدَّث اليوم الفرنسيّةَ جزئيًا أو كليًا، من أجل فرض علاقاتٍ تبعيّةٍ مع المركز الأمّ ولانتزاع مزايا اقتصاديّة منها. إنَّ ذلك هو ما أؤمن صادقًا أنَّه الفرنكفونيّة.

**إدريس**: كيف تردّ على مَنْ يقول إنَّه من المفيد، في مواجهة العولمة الأميركيّة، أن تَدْعم تجمُّعًا آخر هو الفرنكفونيّة، ولاسيَّما أنَّ هذا التجمُّع دافعُهُ ثقافيٌّ بالدرجة الأولى ولا يَسْتخدم القوّة؟

**جنار**: أريد القول إنَّ هذه صورةٌ خاطئةٌ عن الاتّحاد الأوروبيّ في علاقته بحركة العولمة. اليوم يَسْلك الاتّحادُ الأوروبيّ الخطَّ الذي تَسْلكه الولاياتُ المتحدة سواءً بسواء. بل أجرؤ على القول إنَّ الاتحاد الأوروبيّ، في الاستعدادات التي يقوم بها من أجل القمّة القادمة التي تَعْتزم منظمةُ التجارة العالميّة عقدَها في الدوحة (قطر)، يَذْهب أبعَدَ من الولايات المتحدة في إلحاحه على المطالبة بالقيام بجولة مفاوضات تالية.[1] فالفرنسيُّون اليوم يقترحون ٢٠ مادة إضافيّة لتكون تحت وصاية منظّمة التجارة العالميّة!

إنَّ الفرنكفونيّة موجودةٌ اليوم لتدافعَ حَصْرًا عن كل السلع المستندة إلى اللُّغة الفرنسيّة، لأنَّ سوق هذه السلع محدودةٌ وتحتاج إلى الحماية. وهذه الحماية تساعد الفرنسيّين في وجه العولمة، لأنَّ هذه الأخيرة تُغْرَمُ بالسوق الحرّة تمامًا. أمّا في ما يتعدّى السِّلَعَ الثقافيّة فإنَّ الدول الأوروبيّة، ولاسيَّما الفرنكفونيّة

١ ـ أي المطالبة بلبرلةٍ تجاريّةٍ إضافيّةٍ في مجال الخدمات والاستثمار والتنافس لصالح الشركات المتعدّدة الجنسيّة المركزة في أميركا والاتّحاد الأوروبيّ. (الآداب)

# حوار مع راوول مارك جنار عن الفرنكفونيّة

منها (فرنسا، بلجيكا، سويسرا، الخ...)، تؤمن بالسوق الحرّة تمامًا.

لقد حصل الاتّحاد الأوروبيّ على تفويض من ١٥ دولة أوروبيّة يَسْمح له بمفاوضة منظّمة التجارة العالميّة من أجل لبرلةٍ أوسع. ولهذا لا يظنّنّ أحد أنّ فرنسا، في إطار الفرنكفونيّة، تقدّم بديلاً من الولايات المتحدة والأنكلوساكسونيّة سعيًا وراء نظامٍ عالميّ أكثر إنسانيّة. ليس ذلك هو الوضع على الإطلاق. إنّ فرنسا تَسْعى إلى حماية مصالحها الاقتصاديّة في المجال الثقافيّ. ومن الواضح أنّه سيكون مُرْبحًا إنتاجُ فيلم في الولايات المتحدة، وعرضُه ـ من ثمّ ـ في دُور السينما الأميركيّة، ونَشْرُه بعد ذلك في العالم الناطق بالإنكليزيّة؛ ولكنْ ليس الأمرُ كذلك بالنسبة إلى فيلمٍ يُنْتَج بالفرنسيّة في فرنسا، ليُعرَضَ من ثمّ في دُور السينما الفرنسيّة، لأنّ سوق هذا الفيلم محدودة. إنّ قوانين التجارة الحرّة هي التي تَجْعل أسواقَ السلع الثقافيّة المعتمدة على لغةٍ بعينها محدودةً (وهذا لا يَنْطبق على الفرنسيّة وحدها بل على كل اللُّغات التي لا تُعتبر «عالميّةً» كاللُّغات الأفريقيّة والهنديّة...)، وتَجْعل أرباحَها تبعًا لذلك دون الحدّ المقبول، سواء أكانت هذه السلَعُ كتبًا أم أفلامًا أم مسرحياتٍ أم أقراصًا مدمجة. هذا هو المحرِّض الأساسيّ للفرنكفونيّة: فهذه المؤسّسة في النهاية ليست إلاّ لحماية سوق السِّلع الثقافيّة من جهة، ولإعطاء الأفضليّة لمشاريع الدول الفرنكفونيّة الصناعيّة وبخاصّةٍ فرنسا، ومن بعدها بلجيكا والكيبك، على حساب بقيّة الدول الفرنكفونيّة الأقلّ تطوُّرًا.

**شايد:** تشدِّد يا راوول في واحدةٍ من مقالاتك على أنّ «الهديّة» التي يعطيها الاتّحادُ الأوروبيّ لدول الجنوب، وهي عبارة عن إلغاء التعرفات على الواردات (أو ما يُعْرف بـ «كلّ شيء إلاّ السلاح»)، إنّما تَهْدف إلى تقوية موقع فرنسا في المفاوضات مع منظّمة التجارة العالميّة وإلى خفض أسعار البضائع التي تُصْدرها دولُ الجنوب أيضًا. وبذلك تَخْسر دولُ الجنوب كثيرًا نتيجةً لهذه «الهديّة.»

**جنار:** لقد سَمَّيْتُها «الهديّة المسْمُومة» لأنّها في الحقيقة ليست هديّةً على الإطلاق، بل فكرتُها الأساسيّة هي فتحُ السوق الأوروبيّة أمام بضائع ٤٩ بلدًا هي المسمّاة «أقلّ البلدان نموّاً.» والاقتراح المقدَّم هو التالي: بدءًا من الآن ستكون السوق الأوروبيّة مفتوحةً تمامًا أمام جميع بضائع تلك الدول، باستثناء الأسلحة والذخائر. وهذا أمر مضحك لأنّك ستَسْأل نفسَك: أيٌّ من هذه الدول التسع والأربعين تُنْتج أسلحةً أو ذخائر؟! لا دولة! إذن، هذا الاقتراح مزحة كبيرة. وزاد الطينَ بلّةً أنّ فَتْح السوق الأوروبيّة أمام بضائع تلك الدول الأقلّ نموّاً لن يتمّ في ما خصّ البضائعَ الأساسيّة لهذه الدول (وهي السكّر والأرزّ والموز) قبل الأعوام الواقعة بين ٢٠٠٦ و٢٠٠٩؛ أيْ أنّ «الهديّة» ـ إنْ صحّت ـ لن تقدَّم الآن، بل بعد ٥ سنوات. ولكنّها تُعْرض الآن من أجل دفع الدول التسع والأربعين إلى أن تقول «نعم» لجولة جديدةٍ في منظّمة التجارة العالميّة [من أجل لبرلة تجاريّةٍ إضافيّةٍ تَسْتفيد منها الشركاتُ المتعدِّدة الجنسيّة الممركزة في أميركا والاتّحاد الأوروبيّ]. ولحسن الحظّ أنّ الدول التسع والأربعين ردّت ردّاً جيِّدًا، إذ اجتمعتْ في دار السلام في نهاية تموز (يوليو) وقالت: «لا» للجولة الجديدة. إنّ الأوروبيِّين يتصرَّفون مع هذه الدول وكأنّها غبيّة، ولكنّ هذه الدول فهمتْ جيِّدًا أنّ ما يُعْرض أمامها ليس هديّة. بل إنّ ما هو معروض حاليّاً أمامها ضمن اتّفاقيّات التعاون بين الدول ACP (الدول الأفريقيّة والكاريبيّة والپاسيفيكيّة، ومن أصل ٤٩ دولة «من أقلّ الدول نموّاً» هناك ٣٩ عضوًا في ACP) أفضلُ ممّا يُعْرض في تلك «الهديّة» المزعومة. ففي اتّفاقيّات ACP ثمّة «پروتوكول السُّكّر» الذي يَضْمن

الصين تدخل منظّمة التجارة العالميّة: فتاة صينيّة تَغْسل شعر رونالد ماكدونالد

للدول التسع والثلاثين كميّةً مضمونةً مستوردة من السكّر تُرسَل إلى أوروبا وذاتَ سعرٍ محدَّد مسبَقًا. وأمّا في «كلّ شيء إلاّ السلاح» فلا يؤتى على ذِكْر لا الكميّات المضمونة المستوردة ولا السِّعر المحدّد مسبقًا، بل إنّ السعر سيكون السعر العالميّ؛ وبهذا تَخْسر الدولُ الأفقر. هنا نرى كيف سُمِّمت الهديّة: فالأوروبيُّون نَزَعوا «بروتوكولَ السُّكر» الوارد في اتّفاقيّات ACP. ولكنْ في اتفاقيّات كوتونو تمّ الاتّفاقُ على أن تَلْتزم الدولُ الأفريقيّةُ والكاريبيّةُ والپاسيفيكيّةُ ابتداءً من عام ٢٠٠٦ (وهو بالمناسبة اليوم المحدَّد أيضًا لبداية استفادة «الدول الأقلّ نموّاً» من اتّفاقيّات «كلّ شيء إلاّ السلاح») بقوانين منظّمة التجارة العالميّة. إذن كلّ القوانين الحمائيّة الموجودة في اتفاقيّات ACP ستفكّك بمُوجب القوانين الجديدة. تُرى أين أوروبا الإنسانيّة والسخيّة والمسؤولة، التي يُفْترض أن تكون مختلفةً عن الولايات المتحدة الأنانيّة والإمبرياليّة؟ أنا لا أرى أيّ فرق، باستثناء المظاهر الخارجيّة!

**شايد**: هناك أيضًا ما أَشارَ إليه سماح، وهو اعتقادُ البعض أنّ دَعْم الفرنكفونيّة هو دعمٌ لثقافةٍ بديلةٍ من الأمركة المهيمنة، ودَعْمٌ لتنوُّع الثقافات. سؤالي، إذن، هو: إلى أيّ مدى تَسْتطيع الفرنكفونيّةُ أن تَدْعم ـ أو أن تَكْبحَ بل أن تَدُوسَ ـ تعدُّديةً ثقافيّةً موجودةً الآن، وذلك بإصرار الفرنكفونيّة على الفَرنَسْويّة [أي النزعة المؤْثرةِ للفرنسيّة لغةً وحضارةً]؟

**جنار**: أنا أَدْعم تنوُّع الثقافات بكلّ قوّة، ولكنّ هذا يجب ألاّ يَقْتصر على دعم الثقافة الفرنسيّة وحدها. أنا أؤيِّد فكرة التعدُّديّة الثقافيّة في ما يخصّ الشعوبَ الأصليّة في أميركا اللاتينيّة أيضًا، كشعب الشيابا مثلاً. ولكنّني لا أؤيِّد مَنْ يستغلّ فكرةَ التنوُّع لحماية إمبراطوريّة استعماريّة سابقة تسير نحو الانحلال! ولا أَعْتقد، في كل الأحوال، أنّ الفرنكفونيّة المؤسَّساتيّة، أيْ مجموعةَ الدول الفرنكفونيّة، تشكّل كتلةً سياسيّةً واحدة في مواجهة منظّمة التجارة العالميّة. ليس ثمّة مجموعة فرنكفونيّة يُمْكن أن نُقارنها، مثلاً، بالمجموعة الأفريقيّة التي تقول لمنظمة التجارة العالميّة: «نحن لا نوافق على اتفاقيّات حقوق الملكيّة الفكريّة.» علاوةً على ذلك، فإنّ قلّة التنسيق بين الدول الفرنكفونيّة يصبح أكثر خطورةً في ما يتعلّق بالبند الخاصّ بالخدمات. هناك مشكلة في مسألة الخدمات العامّة؛ ولنتذكّرْ أنّ الثقافة تَنْتمي إلى القطاع العامّ للخدمات: فالمسرح المدعوم، والسينما المدعومة، والنَّشْر المدعوم ـ كلُّ ذلك هو من ضمن القطاع العامّ للخدمات. ولكنّ المرء لا يرى أيّ مبادرات فرنسيّة أو بلجيكيّة أو سويسريّة داخل منظّمة التجارة العالميّة من أجل تشكيل كتلة تدافعُ عن التنوُّع الثقافيّ. ولذا أقول إنّ زعم الفرنكفونيّة أنّها تُدافع عن التنوُّع الثقافيّ إنّما هو من قبيل المظاهر الفارغة. فحين يَؤُول الأمرُ إلى نقاشٍ حقيقيٍّ داخل منظّمة التجارة العالميّة حيث تُقرَّر الأمورُ حقّاً ـ لا في القمّة الفرنكفونيّة حيث لا يُقال إلاّ كلامٌ في كلام ـ لا يعود ثمّة تضامنٌ على الإطلاق بين الدول الناطقة كليّاً أو جزئيّاً بالفرنسيّة، بل يغدو كلُّ بلدٍ لا يهمُّه إلاّ نفسه. وهذا هو الأمر المذهل. فأنت تجد الدول الفرنكفونيّة تتصارع لحماية مفهوم التنوُّع الثقافيّ. ولكنْ على هذه الدول أن تَحْمي التنوُّع في **كل** المجالات، مثل مجال الزراعة وحمايةِ الأنواع النباتيّة المختلفة ـ وهذه قضية حسّاسة جدّاً بالنسبة إلى التنوُّع النباتيّ الهائل الموجود في دول الجنوب ـ في حين أنّ دول الشمال هي التي تَحْفظ لنفسها براءةَ اختراعِ وتصنيعِ المنتوجات ضمن العلامات المسجّلة. هنا لم يعد ثمّة دورٌ لفرنسا أو للفرنكفونيّة سوى فرضِ تشريعاتِ منظّمة التجارة العالميّة على دول الجنوب. إنّ فرنسا تحاربُ في مجال التجارة العالميّة وتؤيِّد التنوُّعَ الثقافيَّ حين يكون في صالحها، ولكنْ أيضًا

# حوار مع راوول مارك جنار عن الفرنكفونيّة

لأنّه ليست هناك حقّاً صناعةُ أفلام منافسة من الكيبك أو من والون [في بلجيكا]. صحيح أنّ ثمّة قليلاً من النشر الكيبكيّ والسويسريّ، ولكنْ يكاد ألاّ يكون هناك في حدّ علمي أيُّ صناعة أفلام فرنكفونيّة أفريقيّة على الإطلاق ولا أيُّ نشرٍ فرنكفونيّ في دول الجنوب. لذا حين تتحدّث فرنسا، باسم الثقافة الفرنسيّة، عن حماية التنوُّع الثقافيّ فإنّها تدافع قبل كل شيء عن مصالحها، عن ناشريها، عن مخرجي أفلامها. ولكنْ حين يؤول الأمرُ إلى الثقافات الأخرى لا نعود نرى فرنسا أبدًا. أنا أعتقد جازمًا أنّه لو كنّا نحترم التنوُّع الإنسانيّ حقّاً فعَلينا أن ندافع عن مفهوم التنوُّع الثقافيّ. إنّ عنصرًا أساسيّاً من عناصر مناهضة العولمة هو معارضة التماثل المفروض فرضًا بحيث يُصْبح الجميعُ متساوين ثقافيّاً بحسب المعايير والقوانين نفسها. إنّ علينا أن ندافع عن التنوُّع الثقافيّ، ولكنْ علينا أن نفعل ذلك في الميادين الدوليّة حيث تُصنع القراراتُ، ولاسيّما داخل منظمة التجارة العالميّة وداخل الاتّحاد الأوروبيّ أيضًا. غير أنّ الفرنكفونيّة غير موجودة في هذَيْن الميدانَيْن.

**شايد**: إذن، من جهة ثانية، ألاَ توحِّد الفرنكفونيّةُ الثقافاتِ المتعدِّدةَ **داخل** فرنسا وتُظْهرها ثقافةً واحدةً صلبةً وغيرَ منقسمة؟ مؤخّرًا نَشَرَ مؤرّخٌ لبنانيّ شابّ اسمه أسامة مقدسي كتابًا بالإنجليزيّة عنوانه: **ثقافة الطائفيّة**. وفيه يُورد أنّ القنصل الفرنسيّ، الكونت دو بنتيڤوغليو، لاحَظَ أنّ المتمرِّدين اللبنانيّين بقيادة طانيوس شاهين كانوا يَرْفعون العَلَمَ الفرنسيّ خلال اجتماعاتهم فيما هم يخطِّطون للإطاحة بالأمراء الإقطاعيّين. فأَرْسل القنصلُ نائبًا عنه لكي «يَكْبح الأرواحَ الجاهلة والمتّقدةَ حماسًا» و«لكيْ يوقِفَ سَيْر الثورة.» وبالمِثْل يحلّل تود پورتِرْفيلْد، وهو مؤرِّخ متخصِّص في ثقافة فرنسا أثناء عهدها الإمبرياليّ، كيفيةَ تصدير «الرسالة الحضاريّة» mission civilisatrice بوصفها انحرافًا عن الثورة الفرنسيّة التي خَلَقتْ صدوعًا داخليّةً في المجتمع الفرنسيّ. لقد كان القنصل الفرنسيّ، إذن، يُخبر المتمرِّدين اللبنانيّين ألاّ يتبنّوا فكرةَ الثورة [الفرنسيّة]، وأنّ هذه الفكرة ليست ما تَرْغب فرنسا في تصديره خارجًا. بل الحقّ أنّ «الرسالة الحضاريّة» بدا أنّها وسيلةٌ مربحةٌ للإبقاء على المستعمرات هادئةً. بالنظر إلى أنّ الفرنكفونيّة نظريةُ «تعاوُنٍ» نَمَتْ في زمنٍ توقفتْ فيه فرنسا عن السَّماح للمهاجرين بعبور حدودِها بسهولة (بدايةَ السبعينيّات) ووجدتْ فيه نفسَها مهدَّدةً اقتصاديّاً من قبل المنافسة الأميركيّة، هل تؤدّي هذه الفرنكفونيّة اليوم دورًا مماثلاً «للرسالة الحضاريّة»؟ إلى أيّ مدى تقول الفرنكفونيّة لأهل الجنوب الذين يرون إليها وإلى فرنسا مرجعًا أعلى: «اتْبعونا، ولكنْ لا تفعلوا هذا على حسابنا؛ تعلَّموا أن تكونوا حضاريّين بما يلائمنا نحن، ولكنْ لا تأتوا بممارساتكم الثوريّة إلى فرنسا وتطالبوا بحصّتكم من الأرباح؟»

**جنار**: ملاحظتُكِ صحيحة. فهناك، من جهة، سياسةٌ رسميّة لفرنسا؛ وهناك من جهة ثانية فرنسا البلدُ الذي حصلتْ فيه أحداثٌ عظيمةٌ مثل الثورةِ الفرنسيّة وكومونةِ باريس (١٨٧٠) وظهورِ الفلاسفة. ولهذا ثمّة غموض في علاقة فرنسا بالعالم. هناك السياسة الرسميّة التي نَرْفضها، وهناك الإنجازاتُ الرائعة التي حصلتْ في فرنسا عبر التاريخ. ولكنّنا بالطبع لا تُعْجبنا هذه الإنجازات لمجرّد أنّها فرنسيّة، بل لأنّها تتضمّن أفكارًا ثوريّةً وإنسانيّةً في العمق. لم يكن عبثًا أنّ رجلاً زرتُه مرةً في بكين علّق على حائطِ بيتِه صورةً لڤيكتور هوغو ـ فهو لم يَفْعل ذلك لأنّ هوغو فرنسيّ بل لأنّه كتب **البؤساء**. ولذا، بالطبع، هناك مَنْ يطيِّر علمًا فرنسيّاً لا لأنّه علم فرنسيّ بل لأنّه علمُ الثورة الفرنسيّة، وأستطيع أن أَفْهم تمامًا لماذا لا تَرْغب الحكومةُ الفرنسيّةُ في أن يُسْتخدم

كمبودي يتواصل مع مراسل غربيّ... بلغة الخَمير

العلمُ الفرنسيُّ على هذا النحو لأنَّ لهذه الحكومة مشاريعَها السياسيَّة التي كانت تحاول أن تنفِّذها في جبل لبنان.

أمّا بالنسبة إلى توقيت نموّ الفرنكفونيَّة كما جاء في سؤالِك، فصحيح أنّ هذا النموّ تزامَنَ مع أزمة النفط العالميَّة في بداية السبعينيَّات ومع القوانين الاستجنابيَّة ضدّ تجنيس المهاجرين. وأنا موافقٌ معكِ بالطبع على وجود تناقضٍ في السياسة الرسميَّة تجاه غير الفرنسيِّين في فرنسا، وهذا يَنْطبق على سياسة بلجيكا تجاه غير البلجيكيِّين أيضًا. نحن إزاء تناقضٍ بين تصدير قيم إلى الخارج، ثم رفضِ تطبيقها في الداخل!

**إدريس**: ولكنْ ما هي القيم التي تَسْعى الفرنكفونيَّةُ إلى نشرها في البلدان الأخرى؟ ما هي القيم التي على متبنِّي الفرنكفونيَّة أن يناصرها: أهي أفكارُ العدالة والديموقراطيَّة، أم أفكارُ التبعيَّة لفرنسا وتأليهها؟

**جنار**: تذكّرْ أولاً أنَّ أفكار العدالة والديموقراطيَّة ليست حكرًا على فرنسا والفرنكفونيَّة. ثم لا تنسَ أنَّ أوروبا كانت مسرحًا لأبشع الأحداث: غرف الغاز، الاستعمار، العبوديَّة المأسسة. ولكنْ لو أردنا أن نأخذ القيمَ الإيجابيَّة التي تدّعيها الفرنكفونيَّةُ والاتِّحادُ الأوروبيّ على محمل الجدّ فسنجد أنَّ هناك تناقضًا بين النظريَّة والتطبيق السياسيّ، ولاسيَّما في ما يخصّ بلدانَ الجنوب.

**قاسم عز الدين**: أثمّة أيُّ شيء إيجابيّ في الفرنكفونيَّة؟

**جنار**: تكون الفرنكفونيَّة إيجابيَّةً بقدر دفاعها عن التنوُّع الثقافيّ، باسم اللُّغة الفرنسيَّة والثقافة الفرنسيَّة. ولكنّ على المرء أن يدافع عن كلّ تنوُّعٍ، كما ذَكَرْنا. هناك مثلاً عالمٌ ناطق باللُّغة الإسبانيَّة، فأين المؤسَّسات العالميَّة لحماية الثقافة الناطقة بهذه اللُّغة، وهي ثقافة لا تَقْتصر على إسبانيا وحدها وإنَّما تمتدّ إلى أميركا اللاتينيَّة بل إلى الولايات المتحدة نفسها؟! الإيجابيّ في الفرنكفونيَّة يكون بِقَدْر دفاعها عن عالمٍ متعدِّد. ومن هذه الناحية قد تكون مؤسَّساتُ الفرنكفونيَّة نافعةً، ولكنَّها مشبوهةٌ في عيني إلى حدٍّ أنَّ الإيجابيَّات المحتملة (مثل المنح الدراسيَّة ووسائل نقلِ المعلومات والتكنولوجيا) تَنْقُضها السلبيَّاتُ. علينا أن نَنْتظر ونرى، لأنَّ السؤال الذي طَرَحته يا قاسم يجب أن يُطْرح في القمَّة العتيدة مثلاً. هل محورُ القمّة «حوار الحضارات» مؤشِّرٌ جيِّد؟ نأمل ذلك، لأنَّه قد يعني أنَّ تنوُّعَ الثقافات لا يكون فقط بحماية الثقافة الفرنسيَّة المأسسة في وجه العالم الأنكلوسكونيّ، بل يَعْني الدفاعَ عن كل الثقافات بحيث لا تَمْحو إحداها الأخرى أو الأخريات.

**إدريس**: أمطمئنٌّ أنت يا راوول إلى أنَّ شعار «حوار الحضارات» كما تَطْرحه القمّةُ الفرنكفونيَّةُ المقبلة لا يُخْفي رغبةً حصريَّةً في الدفاع عن المصالح الفرنسيَّة في وجه العولمة المؤمركة؟

**جنار**: لا أحبّ أن أجيب عن سؤالك إجابةً حاسمة لأنَّ العالم الفرنكفونيّ عالمٌ صغير، ورجال أعماله ليسوا حمقى، بل يدركون أنَّ هذا العالم يتقلّص شيئًا فشيئًا. في ڤيتنام ليس هناك إلاّ ١٪ من الناس يتحدَّثون الفرنسيَّة. لذا فإنَّ مِنْ مصلحة الفرنكفونيَّة أن تدافع عن «تنوُّع الثقافات» ـ العربيَّة والإسبانيَّة والصينيَّة، الخ ـ وأن تَسْعى إلى تكوين تصوُّرٍ ما لعالم لا تهيمنُ فيه ثقافةٌ واحدةٌ طاغية. أعتقد أنَّه نظرًا لواقع الأمور ليس للفرنكفونيَّة المؤسساتيَّة إلاّ خيارٌ واحد. ولكنْ علينا أن نَنْتظر نتائج القمّة. لا أستطيع أن أحاكِمَ النوايا، ولذا لا أريد أن أستبق الأمور لأقول إنَّ طرح فكرة «حوار الثقافات» مجرَّد «تجميل» أو أنَّه حبّةُ لوز مُرّة مغطّاة بالشوكولاته. إنَّ وضع العالم الفرنكفونيّ ضعيف جدّاً ومتراجع، وهو في موقع الدفاع، وفي مثل هذه الحال سيفتِّش عن حلفاء من كل الثقافات: عربيَّةً وإسلاميَّةً وصينيَّة. وهذه الثقافات قد تكون شريكةً في المطالبة بمستوى من التعاون الدوليّ لا يتّسم بهيمنةِ

# حوار مع راوول مارك جنار عن الفرنكفونيّة

ثقافةٍ ما عليها. لنَنْظر ونرَ. ربما كنتُ متفائلاً أو ساذجًا أكثر ممّا يَنْبغي! علينا أن نرى أيّ نجوم ستأتي إلى القمّة، عربًا وإسبانيِّين وهنودًا وأفارقةً وصينيِّين، لكي يكون بمقدورنا بناءُ حوارٍ حقيقيّ بين الثقافات.

**عزّ الدين**: بحكم خبرتك هل ستستطيع دولُ الجنوب أن تستفيد من الفرنكفونيّة للتخفيف من عبء الديون؟ فهذه الديون بالنسبة إلى لبنان، مثلاً، هي العائق الأعظم أمام النموّ اليوم.

**جنار**: مرّةً أخرى أقول إنّ علينا أن ننتظر ما يحدث في القمم القادمة. ربّما يقول الحاضرون ما سبق أن قالوه في القمّة السابقة في مونكتون (١٩٩٩) «على الديون أن تخفَّض.» ولكنّ تخفيض الديون نفاقٌ رهيب، إذ على الديون أن تُلغى لا أن تخفَّض! عليهم أن يقولوا: «لا ديونَ بعد اليوم. لقد أُلْغيتْ تمامًا.» وعلى قولهم هذا أن يترافق مع سياسات تنمويّة حقيقيّة. ولكنْ حتى لو قيل في القمّة القادمة إنّ على الديون أن تخفَّض، فإنّ القادة حين يَذْهبون إلى صندوق النقد الدوليّ لن يقولوا ذلك! غير أنّ القرارات تُتَّخذ هناك، في صندوق النقد الدوليّ وفي البنك الدوليّ وفي المؤتمر الوزاريّ لمنظمة التجارة العالميّة، لا في بيروت أو الكيبك. وهناك في تلك الأماكن لا يعود ثمّة فرانكفونيّة، بل دولُ شمالٍ ودولُ جنوب، ودولٌ غنيّة ودولٌ فقيرة فقط. إنّ الحكومات تَعْجز عن اتّخاذ المواقف ذاتها في كلّ المؤتمرات: من القمّة الفرنكفونيّة إلى اليونسكو إلى قمّة منظّمة التجارة العالميّة، وهلمجرّاً. مؤخّرًا كتبنا رسالةً مفتوحةً، أنا وعدد من المثقفين أمثال نوم تشومسكي وإدوارد سعيد وبيير بورديو، إلى الأمين العام للأونسكو بخصوص الاتفاقيّة التجاريّة للخدمات العامّة General Service Commerce Accord. وباختصار قلنا في هذه الرسالة: «إذا أُبرمتْ هذه الاتّفاقيّة فبإمكانكم أن تُغلقوا الأونسكو لأنّ كل شيء يكون قد انتهى؛ فلن يعود القطاعُ العامّ من القوّة بحيث يموّل ويحمي النشاطات الثقافيّة والتربويّة والعلميّة.» بعد الرسالة استقبلنا مديرُ الأونسكو ـ أنا وبورديو وأغنس برتراند ـ وقال «أنتم مصيبون تمامًا. المشكلة أنّني حين ألتقي وزيرًا يكون هذا الوزيرُ وزيرًا للثقافة، في حين أنّ القرار هو في يد وزير المال!» وقال لنا إنّه يومًا ما سيسأل الدولَ الأعضاء في الأونسكو أن تحضِّر لقاءً ما بين الأونسكو ووزراء المال.

**شايد**: ما هي الخلفيّة التي دفعَتْك إلى اتّخاذ موقفٍ معادٍ للفرنكفونيّة المؤسّساتية؟

**جنار**: أنا واحد من الجالية التي تتحدّث الفرنسيّة في بلجيكا، ولغتي الأم هي الفرنسيّة. قضيتُ سنواتي المهنيّة العشر الأولى أستاذًا للفرنسيّة في بلجيكا. ثم عملتُ في كمبوديا حيث شهدتُ تلك المعركةَ الفائقةَ الغباء بين الفرنكفونيِّين والأنكلوفونيِّين، وكلٌّ يحاول فرضَ لغته على بلدٍ يمتلكُ لغتَه الخاصةَ ويَمْتلك القدرةَ على تقرير مصالحه. والحقّ أنْ لا لغة مشتركةً حاليّاً في آسيا، وأعتقد أنّ هذه اللُّغة المشتركة قد تكون الصينيّة يومًا ما نظرًا لانتشار الأقليّات الصينيّة السريع في المنطقة ولنموّ الصين الاقتصاديّ والسياسيّ والعسكريّ بشكلٍ عامّ. ولكنّ اللُّغة الوحيدة المنتشرة اليوم انتشارًا واسعًا في الشرق الأقصى هي الانكليزيّة. إذن، بغضّ النظر عن حبي للغتي الأمّ ولآدابها، فإنّي أعتقد أنّ مصلحة الناس هناك، بالإضافة إلى حماية لغاتهم وثقافاتهم الأمّ، هي في اللُّغة الإنكليزيّة. فإذا أراد أحدٌ من فنوم بن أن يتحدّث إلى آخر من مانيلا فسيتحدّث إليه بالإنكليزيّة، وإلاّ لن يَفْهم واحدُهما الآخر. وهذا لا يعني أنّ على العالم بأجمعه أن يكون أنكلوفونيّاً، بل يَعْني أنّه إذا كان على المرء أن يتعلّم الإنكليزيّة كلغة أجنبيّة يتحدّث فيها مع محيطه الإقليميّ فإنّ الاستمرار في الحديث بلغة الخمير في فنوم بن وبلغة التاغالوغ في مانيلا سيكون هو لبَّ ما يركّز عليه

جهودَه. إنّ إلغاء الاختلافات يجب أن يُرفَضَ لا باسم إمبراطوريّةٍ فرانكفونيّةٍ مصغّرة، بل باسم احترام جميع أشكال التنوُّع الإنسانيّ.

**إدريس**: هذا يَدْفعني إلى سؤالك عن مدى اقتناعك بوجود شيء اسمه «الغزو الثقافيّ.» في بلادنا كثيرًا ما يُنعت القائلون بوجود «غزو ثقافيّ» بـ «الأصوليّين.» ويُردّ عليهم بأنّ الثقافة التي يتباهَوْن بالدفاع عنها ضعيفةٌ في ذاتها وإلاّ لما استطاعت الثقافات الأقوى أن تَفْرض عليها قيمَها.

**جنار**: ولكنْ لماذا تلك الثقافة ضعيفة في الدرجة الأولى؟ إنّها ضعيفة لأنّها لا توجد ضمن سياق اقتصاديّ وسياسيّ قويّ. أنا بالطبع أُؤمن بوجود شيء اسمُه «إمبرياليّة ثقافيّة،» ونَسْتطيع أن نراها في نَشْر اللُّغة الإنكليزيّة. نراها في الأسلوب البالغ التعجرف الذي شهدتُه أكثرَ من مئة مرّة حين يحاول الموظّفون والديبلوماسيُّون الأميركان والبريطانيُّون في آسيا، بل وما يسمّى المنظّمات الأميركيّة غير الحكوميّة هناك، أن يَفْرضوا الإنكليزيّةَ في الخطاب المحليّ على الأشخاص الذين لا يتحدّثون بها. أعتقد أنّ هذا يَحْدث لأنّ الأميركان يَعْتقدون أنّهم يَعْرفون ما هو أفضلُ للعالم، وأنّهم يَمْلكون حقّ فرض رؤيتهم على العالم أجمع. وهم في ذلك مثلُ الفرنسيّين. إنّ هذا التصرُّف الأحمق لَهُوَ شكلٌ آخر من الكولونياليّة، ومن الإمبرياليّة الثقافيّة. أثمّة لغة أو ثقافة تَمْتلك في ذاتها القوةَ للهيمنة على الآخرين؟ لا. إذا لم تقم القوّةُ السياسيّةُ والقوّةُ الاقتصاديّةُ (والثانية في الغالب نتيجةٌ للأولى) بدَعْم ثقافةٍ أو لغةٍ ما فلا قدرةَ لهذه اللُّغة أو الثقافة في ذاتهما على السيادة.

**إدريس**: شكرًا يا راوول. كان حديثُكَ مفيدًا، وخاصةً أنّنا نكاد لا نَسْمع إلاّ عباراتِ الثناء المُطْلق أو الهجاء المُطْلق للفرنكفونيّة.

**جنار**: على الرَّحب والسعة. أَعْتقد، في النهاية، أنّ الفرنكفونيّة كمؤسّسة، يديرها موظّفون فرنسيُّون يَفْرضون بغرورِ قراراتِهم للإعلاء من شأن «الدِّيك» الفرنسيّ، وتموّلها الدولةُ الفرنسيّة، إنّما هي مؤسّسةٌ تَحْكمها موازينُ القوى. فإذا كان لها أن تَعْمل وتكونَ ذاتَ فائدة فإنّ عليها أن تفكّر من جديد في نفسها. من الممكن للفرنكفونيّة أن تكون ذات فائدة. ولكنْ يُشْترط بها ألاّ تَهْدف إلى حماية لغةٍ بعينها، ومن ثمّ سوقٍ بعينها، بل أنْ تدافع عن قيمٍ تكون هي أساسَ سياساتٍ منسجمةٍ في كل المجالات.

**بيروت**

**راوول مارك جنار**

أستاذ في العلوم السياسيّة، متخصّص في العلاقات الدوليّة مع تركيز على جنوب شرق آسيا والمنظّمات الدوليّة. عمل أول الأمر أستاذًا للفرنسيّة، ثم مراسلاً، ومستشارًا للشؤون الدوليّة لمجلس الشيوخ البلجيكيّ. ذهب إلى كمبوديا حيث راقب الوضع السياسيّ مدّة ١٥ عامًا. عمل في منظّمة Oxfam في بلجيكا. عضوّ في منظّمة URFIG وجمعيّة الصداقة الفلسطينيّة ـ البلجيكيّة. يُعِدّ حاليّاً كتابًا عن ضرورة محاكمة المجرم أرييل شارون.

# ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

أسعد أبو خليل

«ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها
غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسانِ»

**أبو الطيِّب المتنبِّي**

فليُبْشِرِ شعبُ لبنان! فوزير الثقافة (أيّ ثقافة؟) في لبنان يُعلن من دون تردُّد أنَّ القمَّة الفرنكفونيَّة المزمعَ عقدُها في تشرين الأول في لبنان ستشكِّل «الحدثَ الأكبرَ في تاريخ» هذا البلد (جريدة **النهار**، ٢ آب، ٢٠٠١). وكأنَّ ما شَهِدَه لبنانُ من حركات وثورات وتطوُّرات لا يُقاس بحجم القمَّة المرتقبة ـ وعلى أحرّ من الجمر ـ من قِبل مَنْ يُصرّ على قياس لبنان بمقاييس ومعايير غربيَّة إفرنجيَّة.

لكنَّ لموضوع الفرنكفونيَّة دلالاتٍ وعبرًا تتجاوز هذا الموضوعَ في ذاته لتطول مواضيعَ تتعلَّق بالجدال غير المنتهي حول هويَّة لبنان (التي يصرّ أنطوان خويري في كتابه الصادر حديثًا على أنَّها «لبنانيَّة صرفة»). والفرنكفونيَّة موضوع يحتاج إلى تفصيل ونقاش لأنَّه في جانبٍ منه يتعلَّق بالعولمة، وفي جانب آخر منه يتعلَّق بـ «اللبننة»؛ ولهذا تحظى القمَّةُ الفرنكفونيَّة بالحماس الإعلاميّ الذي لا يستحقُّه إلاّ فتحُ الأندلس من جديد.

يجب بدايةً التوضيحُ أنَّ الفرنكفونيَّة موضوعٌ لا يمتّ إلينا أصولاً ودوافعَ بشيء، باستثناء لدى أولئك اللبنانيِّين (واللُّبنانيَّات) الذين (واللواتي) رَضِعوا منذ نُعومةِ أظفارهم من «حليب الأم الحنون» ـ على حدّ قول جمال عبد الناصر في خطابه الشهير. فالفرنكفونيَّة مماثلةٌ سياسيّاً وإمبراطوريّاً لهيكليَّة الكومنولث التي أنشأتْها بقايا الإمبراطوريَّة التي غابَتْ عنها الشمسُ ـ وإلى غير رجعة ـ حتى لا تتحوَّل ذكراها إلى مجرَّد حنين رومنطيقيّ. وبصورة مماثلة، حاولتْ فرنسا الحفاظَ على ما تبقَّى لها من وهج (أوْ ما كان يسمِّيه شارل ديغول بـ «gloire» ـ أيْ مجد فرنسا العريق). وحَمِيَتْ حميَّتُها مؤخّرًا في مواجهة العولمة (وهي في تجلِّياتها الثقافيَّة أميركيَّةٌ، وإنكليزيَّةٌ لغةً) كي لا يزول أريجُ مصدر إشعاعٍ ثقافيٍّ قديمٍ يَفْخر به أهلُ ذلك البلد.

ولا تُخفي فرنسا نيّاتِها أبدًا. ولهذا تَجِد وزيرَ خارجيَّة فرنسا يتحدَّث جهارًا ومِنْ دون مواربة عن أهداف الفرنكفونيَّة، وعن «الذعر» الفرنسيّ من هيمنة الثقافة الأميركيَّة العالميَّة.[1] وتَعْلم فرنسا أنَّ اللُّغة الفرنسيَّة كانت تحتلّ مركزَ الصدارة بوصفها لغةَ الأرستقراطيَّة الثقافيَّة، إلاّ أنَّ الاجتياح الأميركيّ عبر اللُّغة الإنكليزيَّة ومن خلال وسائل الاتِّصال الحديثة (خصوصًا الكومبيوتر) رَفَعَت اللُّغةَ الإنكليزيَّةَ إلى مرتبة اللُّغة العالميَّة التي أصبح لزامًا على المرء تعلُّمُها أو إتقانُها أو حتى الإلمامُ بها. بل إنَّ نحوًا من ٦٠ في المائة من سكّان القارة الأوروبيَّة يُتقنون أو يُلِمّون بالإنكليزيَّة، وكلُّ هذا على حساب ثقافات ولغات أخرى.[2] وتَفْتقر الجامعاتُ الفرنسيَّة إلى طلاّبٍ وطالباتِ النخبة من سكّان العالم الذين (واللواتي) كانوا (وكنَّ) يَفدون (ويَفِدْنَ) إلى جامعات فرنسا للحصول على شهاداتها البرّاقة. البريق هذا زال: فقد اندثر تحت محدلة العولمة التي لا يقف في وجهها حجرُ عثرةٍ من أيِّ جهةٍ.

ولأنَّ العولمة حربٌ (سلميَّةٌ وعسكريَّةٌ في آن)، فإنَّ الفرنكفونيَّة هي أيضًا جزء من حرب العولمة: بين فرنسا التي تحاول بصعوبةٍ بالغةٍ

١ ـ يراجع كتابه: **Les cartes de la France à l'heure de mondialisation** (Fayard, 2000).

٢ ـ راجع الرسم البيانيّ الوارد في مجلة **الإيكونومست** في الصفحة المقابلة.

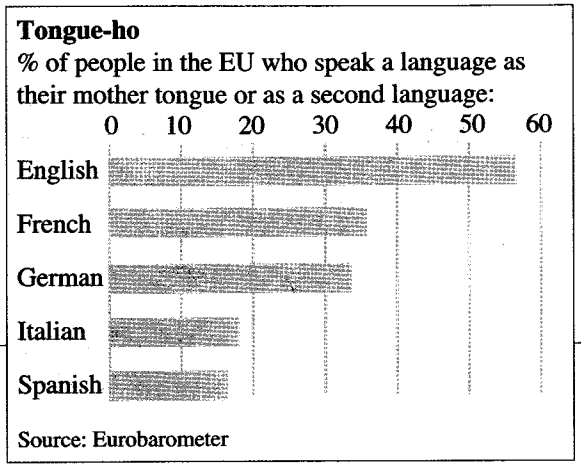


**حوالى ٦٠٪ من الأوروبيّين يتحدّثون الإنكليزيّة لغةً أولى أو ثانية (عن مجلة الايكونوميست)**

الحفاظَ على متبقّيات وهج ثقافيّ عريق كان لها في يومٍ ما، والإصرار الأميركيّ على طمر كلّ مَنْ يقف في وجه الزحف الأميركيّ السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ.[١] وتحاول فرنسا، معتمدةً على علاقات ورثَتْها من عهد الاستعمار، استغلالَ صلاتها بمستعمَراتٍ سابقةٍ لها لبعث الروح (أو ما تبقّى منها) في جسم المنظّمة الفرنكفونيّة.

أمّا لماذا يتنطّح لبنانُ اليومَ (ولبنانُ دومًا يتنطّح لإثبات عدم عروبته، مع أنّ وزير الثقافة الحاليّ يتمتّع برصيد عروبيّ وعلمانيّ حافَظَ عليه عبر سنوات الحرب ـ وهنا المفارقة) للدخول في معمعة الفرنكفونيّة، فالجواب يوجد في خضمّ السياسة اللبنانيّة لا في أزمة حروب العولمة الضروس. فالحقّ أنّ موضوع الفرنكفونيّة لا يَخْتلف البتّةَ عن الصراع على هويّة لبنان، وهو صراع وَسَم التاريخَ اللبنانيّ المعاصر.

## الفرنكفونيّة وهويّة لبنان

ليس من المُسْتغرب أن يَبْذل لبنان الرسميّ في موضوع الفرنكفونيّة حماسًا لم يَبْذلْه في معركة تحرير الجنوب: فهذه المعركة (التي وقفت الدولةُ اللبنانيّةُ إزاءها موقفَ المتفرّج الخنوع أو موقفَ المؤيِّد الخجول) معركةٌ لا تَعْني الكثيرَ من رجال السياسة والطائفة في لبنان خصوصًا ـ والتذكير هنا ضروريّ خشية تكرار تجربة الحلف اليمينيّ مع إسرائيل والتي لم تنفصم عراها بعدُ على ما يبدو. بل إنّ في لبنان مَنْ يَعْتبر المعركةَ مع إسرائيل معركةً «مفروضةً» على لبنان؛ وقد يكون النائب ألبير مخيبر أكثرَهم صراحةً في التعبير عن هذا الاتّجاه.

ويحبّ أهلُ النخبة في لبنان ترويجَ مقولةٍ سمجة، وهي أنّ اللبنانيّ (وربّما بظنّهم اللبنانيّة أيضًا، مع أنّهم يَفْتقرون إلى الحسّ الأدنى من الاستجابة لقضايا المساواة بين الرجل والمرأة) يُتْقن ثلاثَ لغات (قد تكون العربيّةُ منها ـ لا ندري)[٢]. لكنْ مَنْ هو ذلك اللُّبنانيّ المقصود: أهو اللُّبنانيّ في عكّار والجنوب والجبل، أم أنّ أهل النُّخبة يعمِّمون تجربتَهم الطبقيّةَ والنخبويّةَ على مُجْمل شعب لبنان؟ ثم مَنْ يُثْبت أنّ أهل النُّخبة هؤلاء هم حقّاً ضليعون في لغات ثلاث؟ مَنِ امتحن هؤلاء المدّعين... علمًا أنّ اللُّبنانيّ الذي تعلّم، واللُّبنانيّةَ التي تعلّمتْ، في مدارس بيروت الخاصّة وجامعاتها، يَبْذلان جهدًا سخيفًا لا لإتقان اللُّغة بل اللُّكنة ـ واللُّكنةُ بالنسبة إليهما أهمُّ من اللُّغة لأنّها قادرةٌ على ربطهما فورًا بثقافة يحاولان أيّما محاولةٍ الالتصاقَ بها حتى وإنْ نبذَتْهما.

ويَذْكر رئيسُ لبنان الأسبق شارل الحلو[٣] في واحد من كتب مذكّراته (وهي غيرُ واحدة) كيف أنّه زار برفقة شارل ديغول الأكاديميّةَ الفرنسيّةَ، وكيف أنّ الحلو تدخّل (هكذا وبصفاقة) في نقاش في الأكاديميّة حول اصطلاحٍ لغويٍّ ما، وكيف أنّ ديغول حَسَمَ الموضوعَ بأنّ الحلو كان على حقّ![٤] والحال أنّ محاكاة الثقافة الفرنسيّة، في عقليّة اليسوعيّة السياسيّة التي حكمتْ لبنانَ

١ ـ تعبير «ثقافيّ» هنا مُستعمَلٌ بتحفُّظ شديد، لأنّ منتوجات الثقافة الأميركيّة تَدْخل في حيّز الثقافة الشعبيّة المبتذلة مثل أفلام العنف وألعاب الفيديو والإنتاج الموسيقيّ الضحل.

٢ ـ يصرّ سليم عبّو، رائدُ التنظير الفرنكفونيّ، على إدراج أرقام شبه خياليّة عن نسبة «ثنائيّي اللُّغة» في لبنان. فيَذْكر ـ وفقًا لأرقام تخلو من المصداقيّة ـ أنّ ٣٩٪ من المسيحيّات و٢٨٪ من المُسْلمات يُتْقِنّ العربيّة والفرنسيّة. أُنظرْ: Selim Abou, **Le bilinguisme Arabe - Français au Liban** (Paris: Presse Universitaire de France, 1962), p. 111.

٣ ـ للتذكير، فإنّ الحلو كان ناشطًا كتائبيًّا في شبابه.

٤ ـ Charles Helou, **Memoires** (Araya: Imprimerie Catholique, 1984).

# ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

وبَنَتْ لَبِناتِ ثقافته السياسيَّة، هي جزء من الولاء للوطن (وطنِ الأرز أو الوطن الذي هو «جزء من اللّه» على حدّ تعبير شارل الحلو،[1] أو الوطن الذي هو «قطعة سماء» وفقًا لحنجرة وديع الصافي). فاللُّغة الفرنسيَّة خدمتْ أغراضَ غلاة القوميَّة اللبنانيَّة (ويُمْكن القول إنَّ كل دعاة القوميَّة اللبنانيَّة هم من الغلاة).

ولمواجهة واقع عروبة لبنان وثقافته برزتْ محاولتان لإجهاض تعريب لبنان ولإثبات إزدواجيَّةٍ أو ثلاثيَّةٍ ولاء هويَّته السياسيَّة. وقد قاد المحاولةَ **الأولى** سعيد عقل وميّ المرّ ومَنْ تبعهما من روّاد «اللُّغة اللبنانيَّة» المكتوبة بالحرف اللاتينيّ. لكنَّ هذه المحاولة باءت بفشل ذريع، واستقبلها لبنانُ الشعبيُّ بالسخرية التي تستحقُّها هذه الفكرةُ ويستحقّها صاحبُها (الذي لا يتعرَّض في حديثه عن «الفينيقيَّة» و«الحضارة اللبنانيَّة» للتهميش والهزء اللذَيْن يَفْرضهما التأريخُ الأكاديميُّ حول الموضوع). أمَّا المحاولة **الثانية** لدحض عروبة لبنان فتجلَّت أكثرَ ما تجلَّت في الإنتاج الأدبيّ والسياسيّ لليسوعيَّة السياسيَّة، التي حاولتْ وبنجاحٍ رَسْمَ علامة استفهامٍ حول هويَّة لبنان. ألم يَكُنْ بيار الجميِّل يجيب عن سؤال هويَّة لبنان بالقول إنَّ هناك حاجةً إلى خبراء لتقرير هذه المسألة؟

وهذا ما حدث، وهذا ما نَجَحَ رياض الصلح في رَسْمه هو أيضًا حين وَصَفَ لبنانَ بأنَّه «ذو وجه عربيّ،» موحيًا أنَّ الاستنتاج المنطقيّ لذلك هو أنَّ يدَ لبنان أو رِجْلَه أو... أجنبيَّة![2] ولئن حَسَمَ

---

١ ـ Charles Helou, **Liban: cette part de Dieu** (Beirut: Librairie Antoine, 1992).

٢ ـ تحاول ماكينةُ الدولة وأموالُ حفيد رياض الصلح، الأمير الوليد بن طلال، إقناعَنا بأنَّ رئيس الوزراء الأسبق هذا كان «بطلَ الاستقلال.» غير أنَّ اجتماعات الصلح السريَّة والعلنيَّة بالقادة الصهاينة (بمن فيهم حاييم وايزمان ودايفيد بن غوريون) مذكورة عند بعض المؤرِّخين وإنْ بقيتْ مجهولةً لدى معظم اللبنانيِّين واللبنانيَّات؛ وقد أتى على ذِكْر تلك الاجتماعات المؤرِّخ آفي شلايم في كتابه **Collusion across the Divide** المنشور في نيويورك عن منشورات جامعة كولومبيا عام ١٩٩٨. لكنَّ الاتِّهام الأخطر هو حول علاقة الصلح بالمنظَّمة الصهيونيَّة المركزيَّة، ويُمْكن تدعيمُه بالنظر إلى الأوراق الخاصة لحاييم وايزمان، أوّلِ رئيس دولةٍ لإسرائيل. فقد وَرَدَ في هذه المذكّرات خبرُ اتّصال الياس ساسون برياض الصلح (والأوّل هو من الروّاد السبّاقين في تجنيد عرب لمصلحة الصهيونيَّة ونَجَحَ أيّما نجاح في ذلك مع حزب الكتائب بحسب كتاب Schulze Kirsten **ديبلوماسيَّة إسرائيل السريَّة في لبنان** الصادر في نيويورك عن دار نشر سانت مارتين عام ١٩٩٨). انظرْ ص ٢٨٠ من كتاب وايزمان:

**The Letters and Papers of Chaim Weizmann**, Series A, Vol. X, July 1920 - Dec. 1921.

وهو كتاب صَدَرَ في القدس المحتلَّة عن «منشورات جامعات إسرائيل» عاميْ ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥. بل يورد محرِّر المجلّد، واسمُه برنارد واسرتين، معتمدًا على وثائق إسرائيليَّة وصهيونيَّة غير منشورة، وذلك في حديثه عن اجتماع سريّ في منزل الممَوِّل الصهيونيّ روتشيلد مع وايزمان، أنَّ الصلح كان «تحت واجبٍ ماليّ من الصهاينة،» أيْ أنَّه كان مدفوعًا ماليًّا من قِبَلهم؛ والعبارة بالإنكليزيَّة: «He was under financial obligation to the zionists.»

وقد تطوَّع الصلح في تشرين الثاني ١٩٢١، وبعد لقاء خاصٍ مع وايزمان، لإقناع مجموعة من «السوريِّين» باللِّقاء مع الصهاينة بمَنْ فيهم صديقه وايزمان نفسه. فتمَّ الاجتماع في ١٨ آذار ١٩٢٢ في القاهرة (وذلك أيضًا بحسب مذكّرات وايزمان نفسها، المجلّد ١١، السلسلة A أيضًا، الصادر بين يناير ١٩٢٢ ويوليو ١٩٢٣، الرسالة رقم ٧٥). وفي بيان رسميّ أمام اللّجنة التنفيذيَّة للمنظّمة الصهيونيَّة في أكتوبر ١٩٢١ ذَكَرَ وايزمان أنَّ الصلح كان مستعدّاً «لقبول الصهيونيَّة ووعْدِ بلفور كأمرٍ واقع.» (أنظر المذكّرات نفسها، السلسلة B، المجلّد I، أغسطس ١٨٩٨ ـ يوليو ١٩٣١، وقد صدرتْ في نيو برونزويك عن منشورات كتب Transaction عام ١٩٨٣، الصفحة ٣٣٤). وفي الصفحة نفسها أشار محرِّر هذا المجلّد (وهو غير محرِّر المجلّد الأوّل) إلى أنَّ الصلح كان مدفوعًا من قبل الصهاينة، وأنَّه كان في مهمّة اتّصال سلميّ مع اليهود حين اغتيل.

أسعد أبو خليل

**هناك من أقطاب السياسة التقليديّة الإسلاميّة مثل الحريري مَنْ يُبْدي حماسًا للفرنكفونيّة**

اتفاقُ الطائف الموضوعَ ظاهريّاً أو نظريّاً باتّجاه عروبة لبنان، فإنّ التاريخ اللبنانيّ الحديث والقديم لا يشير إلى ديمومة الاتّفاقيّات الموقّعة والمعقودة؛ وتجربةُ الحلف مع إسرائيل، وهي ضمّت بالإضافة إلى أمين الجميّل (العائد مظفّرًا إلى لبنان) العديدَ من طاقم السياسة اللبنانيّة التقليديّة والتقدُّميّة، مثال صارخ على سرعة تقلُّب الأهواء والاتّجاهات مع تعديل ميزان القوى المسيطرة في لبنان. فهل هناك مَنْ يصدِّق فعلاً مثلاً أنّ حزب الكتائب بات عروبيّاً، وأنّه اعتنق بصدقٍ التحالفَ الاستراتيجيّ مع سوريا؟! الحقّ أنّ مسألة هويّة لبنان لم تُحْسَمْ مطلقًا في اتفاقيّة الطائف وما تلاها من تعديلات في صلب الدستور، إذ إنّ منطق «نهائيّة» و«سرمديّة» الوطن اللبنانيّ يَهْدف إلى قطع الطريق على محاولات دمج لبنان في محيط عربيّ أوسع.

في هذا الإطار تأتي الضجّة المثارة حول الفرنكفونيّة، والأجواءُ الاحتفاليّة التي تَسْبق انعقادَ القمّة المنشودة. ومثلما تتحوّل مبارياتُ الرياضة في لبنان فرصةً للابتهاج والتحدّي الطائفيَّيْن، فإنّ الاحتفال بالفرنكفونيّة يَهْدف إلى تكريس تشويش عروبة لبنان وترويج أجنبيّةِ بلدٍ باتت نُخَبُه (على غرار نُخَبِ دول أخرى في العالم) تفضّل الإنكليزيّةَ على الفرنسيّة. لكنّ الفرنكفونيّة هنا ليست لغة، وإنّما هي إيديولوجيا.

## إيديولوجيا الفرنكفونيّة في لبنان

تَحْمل إيديولوجيا الفرنكفونيّة في لبنان معالمَ إيديولوجيا اليمين الطائفيّ بكلّ تضاعيفها. لكنّ لَبْسًا بات يلفّ الموضوع، إذ إنّ تشوُّشًا ما قد طرأ: فهناك مِنْ أقطاب السياسة التقليديّة الإسلاميّة (مثل الحريري، وهو تقليديٌّ بالرُّغم من حداثة عهده في السياسة في لبنان) مَنْ يُبْدي حماسًا للفرنكفونيّة؛ وقد أَعْلمني وزيرُ الثقافة أنّ هناك مِنْ شيعة أفريقيا مَنْ يدعم مؤتمرَ الفرنكفونيّة. لكنّ قضيّة الحريري خاصّةٌ بحكم صداقته برئيس جمهوريّة فرنسا (ونحن لم ندرِ قطُّ ماهيّةَ هذه الصداقة، ومِنَ الصَّعب التصديقُ أنّها مبنيّة على ظرافة شخصيّة الحريري أو على طرافته).

ومن الضروريّ التذكير أنّ الثقافة السياسيّة في لبنان تغيَّرتْ جذريّاً بعد إعلان وقف الحرب إعلانًا رسميّاً. فالمنطق السائد يقول بانتصار الخطّ العروبيّ في لبنان، مع أنّه من الممكن الحُكْمُ بانتصار إيديولوجيا اليمين اللبنانيّ بالرُّغم من هزيمته العسكريّة بعد التدخُّل السوريّ والانكفاء الإسرائيليّ. وهناك الكثير من لَبِنات إيديولوجيا حزب الكتائب باديةٌ للعيان في معالم جمهوريّة لبنان الجديد: من العداء المطلق للشعب الفلسطينيّ في لبنان (تحت شعارات مختلفة مثل «محاربة مشروع التوطين» المزعوم)، إلى المغالاة في الوطنيّة اللبنانيّة، فمحاكاةِ الغرب المبتذلة السائدة في ثقافة لبنان الشعبيّة، بالإضافة إلى السخرية من كلّ ما هو عربيّ في برامج التلفزيون اللبنانيّة. وهناك أيضًا منطقُ رفض تحميل اللبنانيِّين (واللُّبنانيّات) مسؤوليّةَ الحرب في لبنان وعزوها إلى «الآخرين،» بحسب عنوانِ كتابٍ بالفرنسيّة لغسان تويني.[1] كما انتعشتْ إيديولوجيا اليمين بحكم تبنِّي أحزاب سائدة في الوسط الإسلاميّ (مثل حركة «أمل» والحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ) كثيرًا من مبادئها.

والإيديولوجيا الفرنكفونيّة تَحْشر لبنان حشرًا في وسط التراكم الاستعماريّ للإرث الفرنسيّ. فتجربة لبنان تحت الاستعمار الفرنسيّ كانت قصيرة نسبيّاً، مع أنّ بعض اللبنانيِّين واللبنانيّات

١ - Ghassan Tuéni: **Une guerre pour les autres** (Paris: I.C. Lattès, 1985).

# ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

أراد للحقبة الاستعماريّة أن تطول.[1] فلبنان، من حيث طولُ السيطرة الفرنسيّة عليه، ليس الجزائر ولا السنغال، لكنّ المحاولات المصطنعة لإدراج لبنان في الدول الفرنكفونيّة تَهْدف أكثرَ ما تَهْدف إلى إعطاء بديل (وإنْ كان غيرَ منطقيّ ومصطنعًا) لعروبة لبنان. أيْ ثمّة مَنْ يظنّ أنّ بديل «غربنة» لبنان واقعيّ، ويمثّل جزءًا من الاستعلاء الطائفيّ الذي بُني لبنانُ على أساسه. وفي هذا الصدد، فإنّ فلسفة بناء لبنان (أو فلسفة الميثاق الوطنيّ كما يقول كمال الحاج)[2] بُنيتْ على أساس التفوُّق النوعيّ لطائفة على أخرى، واقتضتْ تلك الإيديولوجيا تحقيرَ طائفةٍ بدينها وبتوجُّهها الثقافيّ الحضاريّ والقولَ بارتباط طائفةٍ «مضادّة» بحضارة غربيّة متفوّقة.

ولهذا، فإنّ التخاطب السياسيّ النخبويّ بين أهل اليمين كان يتمّ بالفرنسيّة، لأنّ الاعتراف بمركزيّة اللُّغة العربيّة يُعتبر تنازلاً سياسيّاً غيرَ مفيد. واللافت أنّ شارل حلو وكميل شمعون وَضَعَا مذكّراتهما بالفرنسيّة، وإنْ تُرجمتْ فيما بعد. وانتهجتْ هيكليّةُ قيادة اليمين اللبنانيّ أسلوبًا آخر يتمثّل في تجاهل العربيّة الفصحى، والإصرار على الحديث باللّهجة العاميّة وتنصيبِها عشوائيّاً «لغةً لبنانيّةً» كما يدّعي الكثيرُ من غلاة القوميّة اللبنانيّة؛ وفي هذا طبعًا تناقضٌ صارخٌ مع أبسط قواعد العلوم اللُّغويّة. لكنّ هذا الإصرار، الذي رَفَعه بشير الجميّل إلى مرتبة العقيدة، بات سائدًا في لبنان اليوم حيث غدَت اللّهجاتُ البيروتيّةُ والجنوبيّةُ والبقاعيّةُ مغيَّبةً لأنّ الكلّ يقلّد هذه النمطيّة المحكيّة وكأنّ شعب لبنان كلّه وُلِدَ في الأشرفيّة! ولأنّ النخبة عمّمتْ هذه اللّهجة فإنّ الأجيال الجديدة ـ التي تتقن المحاكاة ادّعاءً للتطوُّر والتماشي مع «المُوَض،» أيّاً كانت هذه «المُوَض» مادامت غربيّة المصدر ـ ستبتعد باطّراد عن نفسها وثقافتها.

ويُمْكن ملاحظةُ سيادة لهجة بشير الجميّل في برامج أقنية التلفزيون ذاتِ الجمهور الأوسع (مثل LBC و«المستقبل» والـ MTV)، حيث يتمّ طمسُ اللُّغة العربيّة بنجاح. والنتاج هو خليط غريب عجيب من اللُّكنة اللبنانيّة ومن مفردات إنكليزيّة وفرنسيّة غالبًا ما تكون في غير محلّها وفي غير معناها الأصليّ.

### ماذا بقي من الثقافة اللبنانيّة؟

إنّ محاولة تزاوج «الثقافة اللبنانيّة» مع الثقافة الغربيّةِ تطوّرتْ باطّراد منذ الاستقلال، بل في فترة ما قبل الاستقلال أيضًا. لكنّ كل الإنتاج الأدبيّ في لبنان هو إنتاج أدبيّ عربيّ من لبنان، حتى وإنْ سُمِّي زورًا بـ «الثقافة اللبنانيّة.» واستعمال مصطلح «الثقافة اللبنانيّة» اعتباطيّ لأنّ اعتبار وجود ثقافة يحتاج إلى دعائم وأركان لا تتوفّر في لبنان. صحيح أنّ في لبنان مَنْ أسْهم في ما أسماه ألبرت حوراني بـ «العصر الليبراليّ»[3] غير أنّ هذه الإسهامات نَهَلَتْ من معين الأدب العربيّ التقليديّ وتصبّ مباشرةً في الكمّ الأدبيّ العربيّ المعاصر. فمَنْ يستطيع مثلاً أن يَعْتبر كتابات الشدياق كـ **الساق على الساق** (وهي تتخطّى المكانَ اللبنانيّ بوضوح وفيها مِنَ التهكُّم على الإكليروس الماروني ما فيها) أدبًا

---

١ ـ ومنهم إميل إدّه (الذي كان يُرافع بالفرنسيّة في المحاكم اللبنانيّة حَسْبما روى وليد عوض في كتابه عن رؤساء ما قبل الاستقلال) ومَنْ يُمثّل، وألفرد نقّاش ومَنْ يمثّل؛ والاثنان تبوّآا مراكزَ سلطة بعد حلّ المجلس التمثيليّ وتغييبِ الدستور من قِبل السلطات الفرنسيّة، مع أنّ منهاج التاريخ في المدارس اللبنانيّة يتعاطى مع الاثنين باحترام وأحيانًا بتبجيل.

٢ ـ كمال يوسف الحاج، **الطائفيّة البنّاءة أو فلسفة الميثاق الوطنيّ** (بيروت: مطبعة الرهبانيّة للبنانيّة، ١٩٦١).

٣ ـ ألبرت حوراني، **الفكر العربيّ في عصر النهضة** (بيروت: مؤسّسة نوفل، ١٩٩٧).

**في الانبطاح أمام هذه القمّة «التاريخيّة» تسليم بتغريب لبنان على حساب تعريبه**

لبنانيّاً؟ كما أنّ كتابات الرابطة القلميّة كانت (وخصوصًا عند جبران) تجربةً أدبيّةً عربيّةً، بالرُّغم من محاولات الدولة اللبنانيّة الناجحة للبننة جبران خليل جبران من قِبل ورَثَة لويس شيخو ومجلة **المشرق** نفسهم، الذين كتبوا في أعداد المجلة نفسها قبل وفاة جبران وبعدها الكثيرَ عن سوء هذا الأديب وشرّه.(١)

أمّا عن النتاج اللبنانيّ بالفرنسيّة، فإنّه بالرُّغم من وجود نماذج راقية من الشعر والمسرح والرواية (صلاح ستيتيّة، جورج شحادة،...) فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ الجهاز الإعلاميّ الضخم والفعّال لجريدة **النهار** كان وراء ظاهرة إبراز بعض الشعراء على حساب شعراء لبنانيّين وعرب آخرين أعظمَ ولكنّهم مخالفون سياسيّاً لتوجُّهاتها.(٢)

---

١ ـ إنّ نقدَ وتهشيمَ «الآراء الكُفْريّة والأقوال الخلاعيّة» لجبران (أنظر **المشرق**، السنة ٢١، عدد ٢٩ أيلول ١٩٢٣، ص ٨٦٦) وَرَدا في أعداد مختلفة من **المشرق**. ونَشَرَ أمين خالد في ثلاث حلقات نقدًا عنيفًا لأدب جبران (أنظر السنة ٣٠، أعداد تموز وآب وأيلول من عام ١٩٣٢). ولم يتورّعْ لويس شيخو عن اتّهام جبران بالجنون (أنظرْ سنة ١٩٢٤، المجلّد ٢٢، ص ٥٥٥ والمجلّد ٢٤، عدد ٦، حزيران ١٩٢٦، ص ٦٣٣). ونجد أنّ المؤسّسة اليسوعيّة (بالمعنى السياسيّ)، وبسحرٍ ساحرٍ، حوّلتْ جبران من كاتب كافر ومنبوذ إلى بطل مسيحيّ لبنانيّ. ففؤاد أفرام البستاني مثلاً يتّهم جبران بالجنون ويحمل «الأفكار الفاسدة،» ويشبِّهه بـ «بولشفيك روسيا التاعسة،» ويحذِّر «العقلاءَ» مِنْ شُرْب سُمِّه (أنظر **المشرق** عدد ١٠، السنة ٢١، تشرين الأول، ١٩٢٣)؛ ولكنّ موقفه نحو جبران يتغيَّر فجأةً في سنة ١٩٣٩ في مقاله «على ذِكْر جبران» (السنة السابعة والثلاثون، نيسان ـ حزيران ١٩٣٩). ففي هذه المقالة يقف البستاني موقف المحايد والمعجَب بأدب جبران، ويلمّح إلى احتمال وفاته كاثوليكيّاً (ص ٢٦٥)، وإلى صداقته ببعض رجال الإكليروس (ص ٢٦٣)، مع أنّ ميخائيل نعيمة في سيرته عن جبران حَسَمَ الموضوعَ بالسلْب. وكان موقف شيخو من جبران والريحاني وفرح أنطون موقفًا طائفيّاً إذ رأى فيهم أناسًا باعوا دينَهم. وقد سمّى شيخو الريحاني تهكُّمًا «محمد الرِّيحاني» (**المشرق**، السنة الحادية والعشرون، العدد ٦، حزيران ١٩٢٣، ص ٤٨٨)، وزاد أنّه ذو «رائحة منتنة!» (ص ٤٩١)

٢ ـ احترامًا لتراث مجلّة الآداب في النقد الأدبيّ، من الضروريّ التوضيح أنّني هنا أعبِّر عن رأيي كقارئ لا أكثر. لكنّني سأستَشْهد بمقاطع من شعر نادية تويني وشوقي أبي شقرا لإقناع القارئ والقارئة بما أعنيه. ففيما يلي مثلاً ما تفتَّقتْ عنه قريحةُ نادية تويني بعد اجتياح ١٩٨٢ الوحشيّ (والنصوص من كتابها **La terre arrêtée** الصادر عن دار النهار عام ١٩٨٦، الصفحات ٣٦٤ و ٢٩٣ و٢٨٧):

Beyrouth / Étrange capitale / Écho d'homme / à multiple errances, / Unis sur le gibet de la parole.

أو: Je vous salue / Vous qui êtes, / Dans la simplicité d'une racine, / Avec la nuit pour chien de garde, / Vos bruits ont la splendeur des mots...

أو: En un lieu de cruches et de vent. / En un lieu de point et de route. / En un lieu de jeune comme l'eau. / En un lieu où le pied se pose. / Comme une fleur sur un ruisseau.

وفيما يلي بعض مقاطع من قصائد أبي شقرا (من كتاب **ماء إلى حصان العائلة** الصادر عن دار مجلّة **شعر** عام ١٩٦٢، الصفحات ١٢، ١٤، ١٥): «ابنةُ عمّي راعية في المتحف. أختي تتزحلق، تجرّ في طريقها الثلجَ والمباريات الرياضيّة. ابنها عشبة. أمّي صخرة أقطع عليها النهر»؛ «أسافر في الجوّ إلى خالتي الوحشيّة. آكل الدجاج بين فخذيها. أمصّ العظام. لها لحم ناعم كورق الرسائل»؛ «نظراتي حبّة مسك. خسّة يأكلها البط العوّام.» أو أقرأ هذه المقاطع من ديوانه **يتبع الساحر ويكسر السنابل راكضًا**، الصادر عن دار النهار عام ١٩٧٩ (الصفحات ٩، ٥٣، ٧٨): «أبتسم. صحن السلطة والحقول بين أسناني، والآفاق ريشاتٌ في قبّعاتي، متفرّقة كالمعز في الجبال»؛ «أزْرع سفرجلاً في صالات السينما. الرجال قبل الظهر يتفرّجون، والنساء بعد الحمام الساخن»؛ «نام على ظهره، أثقل من زئبق، من بطاطا، رفع السلاح، رفع رجليْه غصبًا عنه، حبشة مذبوحة منتوفة، وشرواله كتّان أبيض. ثمّ طز [!]»

# ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

إنَّ الثقافة «اللبنانيَّة» هي الثقافة العربيَّة في لبنان. فالحق أنَّ عوامل الثقافة المستقلّة منعدمة في لبنان الصغير (مهما كَبَّروه عنوةً). كما أنَّ تجلّيات الأدب العربيّ تختلف من منطقةٍ أو دولة وأخرى مثلما يَلْحظ المرءُ تغيُّرًا ملموسًا في الطابع المعيش للحياة بين منطقة وأخرى في لبنان. والإصرار على وجود الثقافة «اللبنانيَّة» يَهْدف إلى بلورة صيغ متعدِّدة من منطق «القوميَّة اللبنانيَّة» التي لم تستنزفْ قواها بعدُ، بل تحاول النهوضَ من جديد نتيجةً لمنطق الشوفينيَّة اللبنانيَّة التي تُسْهم وسائلُ الإعلام الحديثة في إحيائه مجدّدًا، وهو لم يَمُتْ يومًا أصلاً.

والثقافة «اللبنانيَّة» هي ـ في منطق الحرب اللبنانيَّة التي يُزعَمُ أنَّها لن تعود أبدًا ـ ثقافةٌ انعزاليَّة بالمعنى الحرفيّ: إنَّها ثقافةٌ ذاتُ غرض سياسيّ يَهْدف إلى فصل عُرى لبنان الطبيعيَّة والمنطقيَّة عن العالم العربيّ، وإلى اختلاق روابط وهميَّة مع الغرب. وعلاقة الفاتيكان مع الكنيسة المارونيَّة تاريخيّاً ساعدتْ في تعزيز وَهْم الرابط الغربيّ، مع أنَّ سُدَّة البابويَّة شكَّلتْ في التراث الفكريّ الأوروبيّ قوَّةً ظلاميَّةً قاومتْ (وتقاوم بعناد) أفكارَ وحركاتِ التنوير والمساواة.[1] أيْ انَّ الشعارات البرّاقة عن «الحريَّة» عند بعض اليمين المسيحيّ ـ مع التأكيد أنَّ اليمين مُعشّش في صفوف كل الطوائف ـ تَصْطدم بتوجُّهات الكنيسة الأمّ. وهذا لا يُعْفي طبعًا جلَّ النخبويَّة الطائفيَّة، على اختلاف مذاهبها ومشاربها، من مسؤوليَّة تأجيج الصراعات الطائفيَّة والمذهبيَّة بهدف شرعنة مصالح سياسيَّة واقتصاديَّة سائدة. ولكنَّ التوسُّع في هذا الموضوع قد يكون مستحيلاً في «جمهوريَّة» ضَرْبِ الطلاَّبِ أمام قَصْر العدل ـ يحيا العدل!

## مقاومة الفرنكفونيَّة

قد يكون (أو قد يبدو) هدفُ مقاومة الفرنكفونيَّة في خضمّ الأزمة المعيشيَّة الخانقة التي يعيشها شعبُ لبنان هدفًا طوباويّاً لا علاقة له البتَّةَ بحياة اللبنانيِّين واللبنانيَّات. وهناك اليومَ استنفارٌ لقوى الشعب اللبنانيّ نتيجةً لتراكم المشاكل والديون والوعود (منذ أَطْلق الحريري شعارَ «انتظار الربيع» منذ نحو عشر سنوات). لكنْ إذا نظر المرءُ إلى أزمة لبنان الحاليَّة، وهي أزمة سياسيَّة ـ اقتصاديَّة متشعِّبة مرتبطة ارتباطًا عضويّاً بمشاكل دول العالم الذي يحاولون إقناعنا بأنَّه ينمو باطّراد، فإنَّ الفرنكفونيَّة رديفٌ للعولمة من حيث سعيهُما إلى إدراج لبنان في خانة الصراع بين دول المركز الرأسماليّ نفسِه (فرنسا والولايات المتحدة).

وهذا الصراع، كما سَلَفَ الذِّكْرُ، لا يعنينا من قريب ولا من بعيد، إلاّ إذا اعتبرنا هزيمةَ فرنسا سياسيّاً وثقافيّاً هزيمةً لنا نحن، على نسق الشعار المتخاذل: «فرنسا أمّ الدنيا عمومْ، اعتزُّوا يا لبنانيِّي!» وهو شعارٌ أطلقته حناجرُ بعض الجماهير خلال استعمار فرنسا لنا. كما أنَّ مقاومة العولمة في كل تجلّياتها لا تَعْني بالضرورة تغليبَ جزء من المعسكر الرأسماليّ وتفضيلَه على غيره: فما هي منفعتنا من حسابات الربح والخسارة بين فرنسا وأميركا؟!

إنَّ مقاومة الفرنكفونيَّة هي في صلب الصراع السياسيّ اللبنانيّ، لأنَّ في الانبطاح أمام تلك القمّة «التاريخيَّة» الآتية تسليمًا بتغريب لبنان على حساب تعريبه. ويحاول وزير الثقافة (من دون أيّ نجاح) التوفيقَ بين تنطّحه الفرنكفونيّ وتوجُّهه العروبيّ. لكنَّ العلاقة بين التوجهَيْن متنافرة، لا بسبب الأخذ باتِّجاه شوفينيّ قوميّ يَرْفض الانفتاحَ على الغير؛ فالحقّ أنَّ الانفتاح الثقافيّ في

١ ـ Wills Garry, **Papal Sin: Structures of Deceit** (N.Y.: Doubleday, 2000).

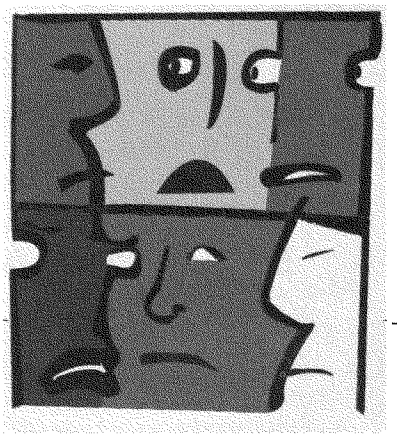

يستفيد من مؤتمر الفرنكفونيّة كلُّ مَنْ روّج أسطورةَ «الدور العالميّ» للبنان

عصر الطغيان ضرورةٌ سياسيّةٌ وثقافيّةٌ، خصوصًا إذا أردنا أن يتماشى مفهومُ العروبة مع العصر ومتطلّباته، فلا نُطعَن من جديدٍ من قِبَلِ نماذج «عروبيّة» باتت منبوذةً نتيجةً لخبرة الناس بها. غير أنّ الانغلاق هو من قِبَلِ تلك الأطراف نفسِها التي ما فتئتْ منذ إنشاء دولة الاستقلال تحارب عروبةَ لبنان وتراثه الحقيقيّ. ولعب دورًا هامّاً وشريرًا في هذا المجال فؤاد أفرام البستاني الذي نُصِّب على رئاسة الجامعة اللبنانيّة عند إنشائها مع أنّه لا يَحْمل درجةَ الدكتوراه، في الوقت الذي اضطرّ فيه العلاّمة عمر فرُّوخ إلى التدريس الثانويّ بعد عودته من ألمانيا قبل الحرب حاملاً شهادةَ دكتوراه مميّزة في علوم الشرق الأوسط. ونجح البستاني أيضًا في بثّ أفكاره (كي لا نقول سمومَه) في عقول طلبة لبنان عبر تدخُّله المباشر في وضع المناهج المدرسيّة رسمياً.[1]

والحال أنّ الفرنكفونيّة، إنْ قبلناها، تشكّل خطرًا مضاعفًا لأنّها قد تتحوّل على أيدي دعاتها المتزمّتين (وداعياتها المتزمّتات) حركةً طائفيّةً فجّةً (وهي في أساسها حركةٌ سياسيّة) خصوصًا إذا تراجَعَ الدورُ السوريُّ في لبنان، فتخلُو الساحةُ إذّاك لغلاة القوميّة اللبنانيّة الذين لم يُنهوا خيارَ التحالف مع الخارج المعادي للعرب. وتصبّ الدعواتُ الصاخبة إلى العفو عن عملاء إسرائيل، وإلى التنادّي لإنقاذهم، في مصبّ نقض تحريم التعامل مع هذا العدوّ نفسه. والحقّ أنّ الحركة السياسيّة للفرنكفونيّة تزداد زخمًا، ولاسيّما أنّ الإعلام اللبنانيّ فَقَدَ الحريّةَ فعلاً لا قانونًا، وذلك لأنّ المال الحريري نَجَحَ في إقصاءِ أو إسكاتِ غالبيّة الأصوات المعارضة. ويستفيد من مؤتمر الفرنكفونيّة كلُّ مَنْ روّج في الماضي، ويروّج في الحاضر، أسطورةَ «الدور العالميّ» للبنان، وهو دورٌ مزعوم لم يلعبه لبنانُ يومًا.[2] وقد ساعد في ترويج مقولة «العبقريّة اللبنانيّة» و«الدور اللبنانيّ العالميّ» أساطينُ السياسة والثقافة الشعبيّة، مثل سعيد عقل والأخوين رحباني ـ والأخيران حوّلا شخصًا مثل فخر الدين (وهو الذي كان يرتعد من ذِكْر السلطة العثمانيّة التي دَعَتْه إلى حضرتها وقتلتْه) أسطورةً عالميّةً شبيهةً بناپوليون. وصَدَّقَ هذه الأسطورةَ المدرجَةَ في المناهج المدرسيّة المقرَّرة مَنْ صَدَّقَ. ونرى في جمهوريّةِ ما بعد الانتهاء الرسميّ للحرب محاولةً ناجحةً لتسريب عقائد اليمين اللبنانيّ في أوساط الشعب. وما فكرةُ «عيد العَلَم» لصاحبها بطرس حرب إلاّ لشرعنة غلوّ القوميّة اللبنانيّة وإعطائها الصفةَ الرسميّةَ عندما شغَلَ منصبَ وزير التربية في عهد إلياس سركيس البائد.

إنّ لبنان ـ وهذا يُحرج مَنْ نَشَأَ على تصديق أساطير هذا البلد ـ كان هامشيّاً وسيظلّ كذلك. والقول بالنبوغ اللبنانيّ يَحْمل في ثناياه من العنصريّة ما يحمل: فالنتيجة المنطقيّة لهذه الفرضية هي أنّ الشعب اللبنانيّ متفوّق جينيّاً وبيولوجيّاً على جيرانه من الشعوب، وإلاّ فكيف يُمْكن تفسيرُ هذه النظريّة؟ طبعًا هناك مَنْ يرى في فرضيّة «النبوغ» تفوُّقًا نوعيّاً لأفراد طائفة على أخرى؛ وهناك تصاريحُ تختلف في صراحتها (وخصوصًا من لدن الكسليك أثناء الحرب) حول هذا الموضوع.

أمّا سببُ نظر العالم إلى لبنان في مرحلةٍ ما فإنّه لا يمكن عزوُه إلى لبنان، بل إلى **موقع** لبنان في محيطه. فدور لبنان مستحيل خارج محيطه العربيّ. والدور الذي لعبه هذا البلد في فترة

١ ـ ويبدو أنّ البستاني كان عازمًا منذ وقت مبكّر على وضع مناهج التعليم في لبنان؛ أُنظرْ مقاله «البكالوريا اللبنانيّة والتعليم العصريّ» (**المشرق**، آذار ١٩٣٠) وفيه يعيب على وزارة المعارف اعتمادَها على كتابٍ وضَعَه «مصريٌّ.» (ص ٢٨٢)

٢ ـ كان أمين الجميّل يردّد إبّان تبوُّئه منصبَ الرئاسة عنوةً شعارَ «أَعْطونا السلامَ وخُذوا ما يُدْهِش العالَمَ.» والغريب أنّ هذا الشعار لم يحظَ بالتعليق أو السخرية؛ ويُمْكن المرءَ أن يتصوّر ردّةَ الفعل الأجنبيّة على التبجُّح والادّعاء اللذَيْن يتضمّنهما.

# ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

الخمسينيّات والستينيّات يَرْجع إلى روابطه بمحيطه العربيّ سياسيّاً واقتصاديّاً، وهو ما جعله مرتعًا مرغوبًا للدول والشركات والاستخبارات الغربيّة التي استفادت من انفتاحه النسبيّ والمشروط.

ويحاول رئيسُ الحكومة أن يدلّل على نجاحه في إعادة «دور لبنان إلى الخارطة،» على نحوِ ما تحدَّث في مقابلة تلفزيونيّة مع شبكة NBN في ٥ آب (أغسطس). وتأتي القمّة الفرنكفونيّة وقصرُ المؤتمرات الشهير (وهو مثلُ غيره من مشاريع الحريري سَهْلُ التخطيط والتنفيذ لأنّ نفقات بنائه تتكفّل بها الأجيالُ اللاحقةُ من شعب لبنان التي ستُرهقها الديونُ التي يراكمها حكمُ الحريري «الديناميكيّ»). لكنْ ما هي أهميّةُ المؤتمر الفرنكفونيّ، وأين الشفّافيّة في رفض وزير الثقافة التصريحَ بنفقات القمّة الفرنكفونيّة (حديث مذكور سابقًا مع جريدة **النهار**)؟ أوَليس مستهجَنًا جدّاً رفضُ وزيرٍ تقديرَ الكلفة في عهد الديون الخارجيّة الهائلة وفي زمن الجوع؟

لكنّ لبنان النخبة لم يعِ يومًا مصيرَ الأكثريّة من الشعب. ولنرَ إلى المحاولة المصطنعة والمَمجوجة لبعث حياة اجتماعيّة ومهرجانيّة صاخبة وكأنّ الحرب لم تكن، أو كأنّ الحنين إلى ما قبل الحرب لا يتضمّن تناسيًا للفروق الطبقيّة والطائفيّة والسياسيّة التي وسمتْ نظامَ ما قبل الحرب وأدّت بازدياد إلى تضعضع نظامٍ كان يجب ألا يستمرّ ـ وها هو يُبعث حيّاً، وبصورة أكثر اشمئزازًا من الماضي، وفي ضوءِ محاصصةٍ طائفيّةٍ تُشْبه صفقاتِ أقطابِ المافيا في عزّها.

## الخلاصة

إنّ بديل الفرنكفونيّة يكون في تجاوز العقدة اللبنانيّة التي على أساسها تُرفض هويّةٌ لبنان الحقيقيّة: وهي، شاء مَنْ شاء وأبى مَنْ أبى، عربيّةٌ ـ إسلاميّةٌ (بالمعنى الحضاريّ التاريخيّ للكلمة الأخيرة لا الدينيّ طبعًا)، مستفيدةٌ من الوجود المسيحيّ في لبنان وخصوصيّته دون أن يَطْمس هذا الوجودُ التراثَ التاريخيَّ للبلد.[1] ويكاد لا يَخْتلف مستشرقٌ غربيٌّ أو مستشرقةٌ غربيّةٌ على أمر هويّة لبنان، وكثيرًا ما يُقابِلُ المستشرقون والمستشرقات دعواتِ «القوميّة اللبنانيّة» و«الفرادة اللبنانيّة» بالاستنكار والاستهزاء.

وكيف يمكن أن تستديم هويّةٌ تَعْتمد في أساسها على نفي الشيء والأخذِ بعدمه؟ كيف يمكن أن تكون فرنكفونيّةُ لبنان حقيقيّةً، وآثارُ الثقافة الفرنسيّة هامشيّةٌ وسطحيّةٌ، باستثناء استعمال مفردات هنا وهناك واستخدام أسماءِ الأفراد والحلويّات الغربيّة، الخ؟ وكيف يمكن أن تعبِّر الثقافةُ الفرنكفونيّة عن تطلُّعات جيل جديد من اللبنانيّين واللبنانيّات، وفرنسا تبدو لهم (ولهنّ) أبعدَ من قرى جرود الضنيّة؟! هذا لا يَنْفي الارتباطَ الثقافيَّ الحقيقيَّ لجزء من لبنان بالثقافة الفرنسيّة، خصوصًا في وجود المدارس والجامعات ذات التوجُّه الثقافيّ واللُّغويّ الفرنسيّ. لكنّ ربط هذا التوجُّه بهويّة لبنان السياسيّة والقوميّة، أو فَرْضَ هذا التوجُّه على شعب لبنان **بأكمله**، إنّما هو من أعمال «الهيمنة الثقافيّة» بالمفهوم الغرامشيّ، ومِنْ أعمال بناء وطنٍ لَبِنةً لَبِنةً على مقاسِ نخبةٍ ما. وقد تكون باريسُ وشوارعُها

---

١ ـ في دراسة ميدانيّة شاملة لعدنان الأمين ومحمد فاعور لآراء وتوجُّهات الطلاّب الجامعيّين في لبنان يتبيَّن أنّ هناك اليوم شبهَ إجماع (على الأقلّ في أوساط العيّنة) على عروبة لبنان، وإن اختلفتْ نِسَبُ التأييد بين الطوائف. أنظرْ عدنان الأمين ومحمد فاعور، **الطلاّب الجامعيُّون في لبنان واتّجاهاتهم** (بيروت: الهيئة اللبنانيّة للعلوم التربويّة، ١٩٩٨)، ص ٣٦٠.

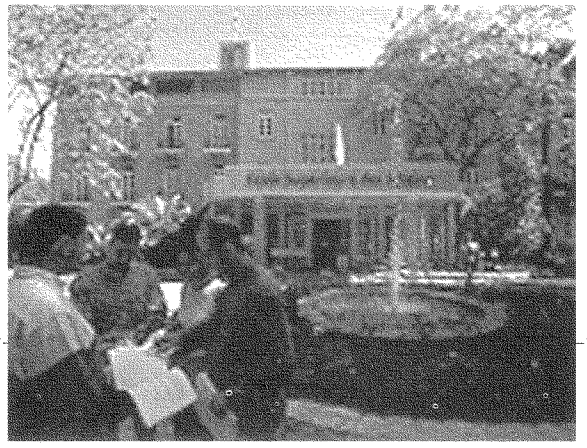

آثار الثقافة الفرنسيّة هامشيّة في لبنان، باستثناء بعض المدارس والجامعات

أقربَ إلى **بعض** أبناءِ وبناتِ الوطن، و«كلُّهم للوطن» طبعًا، من بعض أحياء بيروت نفسها. لكنَّ الوطن ـ أيّ وطن ـ وهو مشروع خياليّ كما يذكِّرنا بَندِكْت أَنْدرْسن في كتابٍ شهير، إذا قُيِّض له أن يدوم، يجب أن يعبِّر عن «خيال» ذي جذور تمتدّ إلى كلّ أنحاء لبنان وقراه ومدنه، حتى لا يتحوّل الوطنُ إلى مقهى «ستاربَكْس» أو إلى ما هو أسوأ.

إنَّ تغريبَ لبنان عن ذاته، أو نفيَه عنها، يَسْهلان بالطبع في وجود المدارس والجامعات الخاصّة التي تُعزِّز طمسَ هويّة لبنان الحقيقيّة. وللأسف، يَلْعب خرِّيجو الجامعات الخاصّة وخرِّيجاتُها دورًا استثنائيّاً في قيادة دفّة الدولة ومؤسّسات المجتمع. وساعدت الحربُ على إقصاء الجامعة اللبنانيّة عن لبنانيّتها. ولا يشكّل رفضُ توحيد الجامعة إلاّ رفضًا للبننتها، خصوصًا أنَّ بعض فروع هذه الجامعة اللبنانيّة انتهج تقليدَ الجامعات الخاصّة في تغييبها؛ وهذا ما يُعَدُّ عِلْمًا «صحيحًا» بحسْب المفهوم المستنِدِ إلى عقدة الأجنبيّ.

ثم إنَّ مقاومة الفرنكفونيّة تأتي في وضع دوليّ تقف فيه فرنسا على الهامش المُهمَّش. فماذا فعلتْ فرنسا عندما رَفَضَت الولاياتُ المتحدة رفضًا قاطعًا برنامجَها لإنهاء أزمة الخليج في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠؟ لا شيء. وما هي فائدةُ صداقة رئيس الحكومة اللبنانيّة لرئيس جمهوريّة فرنسا؟ الجواب هو أيضًا لا شيء، إلاّ إذا أردنا الاغترارَ بالاستقبال الحميم الذي يَلْقاه الحريري عند وفادته إلى باريس. ولا يَعْني هذا الكلامُ التسليمَ بالهيمنة الأميركيّة أو بالـ «hyperpuissance» (القوّة الفائقة) على حدّ تعبير وزير خارجيّة فرنسا. لكنْ هل يكون من المنطقيّ من منظور الدول الفقيرة التي نحنُ منها، شئنا أم أبينا (و«نيّال مَنْ له مَرْقد عنزة في **خارج** لبنان»)، استبدالُ هيمنةٍ أجنبيّةٍ أميركيّة بهيمنة أخرى؟ فَلْنَتْرُكْ فرنسا والولاياتِ المتحدةَ في صراعهما حول العولمة الثقافيّة، لأنّنا في غنًى عن تورُّطنا في صراعٍ لا مصلحة البتّةَ لنا فيه. فالحقّ أنَّ مواجهتنا للعولمة الثقافيّة لا تكون بمناداتنا بثقافة فرنسيّة (مهما أحبَّها شارل حلو ومهما تربَّينا على تعلّمها وعلى تقديرها)، بل بالدفاع عن ثقافتنا العربيّة في مواجهة العولمة. ويُمْكن النظرُ إلى المستوى التسطيحيّ وغير المتنوّع للإنتاج الموسيقيّ العربيّ الحاليّ بوصفه نتاجًا للعولمة الثقافيّة: فهناك تقليد للنتاج الأميركيّ المبتذل، حتى في الإيقاع، وخصوصًا في الـ «فيديو كليب» وهو مستورد وبفشلٍ عن نماذج الـ MTV (المحطة الموسيقيّة الأميركيّة).

وممّا أضعفَ النتاجَ الثقافيّ اللُّبنانيّ إصرارُ دعاة القوميّة اللبنانيّة على إبراز خليط متنافرٍ ومتهافتٍ لا هو بالشرقيّ ولا هو بالغربيّ. ويُمْكن الحُكْمُ على سنواتٍ ما قبل الحرب بوصفها شاهدةً على نجاح تجربة الإنتاج العربيّ في لبنان (من خلال مجلاّت **شعر** والآداب و**دراسات عربيّة ومواقف**)، وشاهدةً على فشلِ وبطلانِ محاولات الانعزاليّة في رفع الزجل وشِعْرِ ميشيل طراد إلى مصاف الأدب الرفيع. ولا يَعْني هذا أن تُشكَّلَ لجنةٌ خبراء لتمييز الغثّ من السمين في الأدب والشعر على غرار بعض الأنظمة التي فَرَضَتْ «ذوقًا» وعمّمتْه قسرًا على الجماهير. بل على العكس؛ فحريّة الفكر والتعبير الخلاّقة من شأنها، إذا لم تقع تحت سيطرةٍ ماليّةٍ وسياسيّةٍ وحدانيّة كما هو حاصلٌ اليومَ، أن تَبْعث الروحَ في التنوُّع الثقافيّ الفذّ لكيْ يكون للعامّة موادُّ متوافرةٌ للانتقاء الحرّ وللاختيار الطوعيّ من دون هيمنة أجهزة هذه الجريدة أو تلك. والغنى الثقافيّ والفنيّ يَعْتمد على تنوُّع المصادر وعلى تنوُّع وسائل التعبير وأشكاله. ويُمْكن النظرُ إلى فترة العصر الذهبيّ للأدب العربيّ في أوجهٍ متعدِّدة بوصفها نتيجةً لتعدُّد الثقافات، لا بالمعنى الذي يَزْعمه أهلُ الكسليك طبعًا، ونتيجةً أيضًا للانفتاح الهائل الذي أظْهرته الحضارةُ الإسلاميّةُ الكلاسيكيّة. وفي هذا

# ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

الإطار، يُمْكن النظرُ إلى نتاجات الثقافة المحليَّة، بما فيها الشعرُ المكتوب باللَّهجة المحكيَّة، بوصفها جزءًا لا يتجزَّأ من الثقافة الشعبيَّة، دون محاولة جعل هذا الإنتاج دليلاً قاطعًا على فرادةِ ما يسمَّى بالثقافة اللبنانيَّة.

ويجب في هذا الصدد التصدِّي المباشر لدعوات «الأصالة» لما فيها من حوافز شموليَّة وقمعيَّة، وهي محبَّذة من قبل الأصوليَّات الدينيَّة (ولبنان مصاب بعدد منها). فمفهوم الأصالة يَفْترض مقياسًا صارمًا يقاس على أساسه كلُّ ما يُنْتَجُ من ثقافة. وتحت شعار «الأصالة» تُمْكن محاربةُ ما يُعتبر خارجًا عن أذواقِ وأخلاقِ أهلِ الأزهر أو أهل الكسليك، لا فرق. ومن المخيف أن تكون للسلطات الدينيَّة سلطةُ التقرير، خصوصًا أنَّ التخوين والتكفير استُعملا على مدى أكثر من قرن (حتى لا نعود تاريخيًّا القهقرى) من أجل فرض الرأي والتفسير الواحديَّيْن.

وهناك واقع لا يُمْكن نفيُه في أوساط نُخَبِ الطوائف: فليس مصادفةً مثلاً أن يكون بشارة الخوري في مرحلةِ ما بعد الاستقلال (هذا إذا افترضْنا أنَّ لبنان كان مستقلاً يومًا) هو رئيس الجمهورية الوحيد الذي يُتْقن اللُّغة العربيَّة. فكلّ رؤساء الجمهوريَّة لم يكونوا يُتْقنون اللُّغةَ العربيَّة، وهناك منهم مَنْ كان أكثر طلاقةً بالفرنسيَّة منه بالعربيَّة (مثل الرئيس الحاليّ). وهناك مَنْ لم يكن يتقن أيّ لغة (مثل سليمان فرنجيَّة). ويُمْكن تعميمُ هذا القول على رؤساءِ ما قبل الاستقلال: فأيُّوب ثابت كان الرئيسَ الوحيدَ بينهم الذي أتقن اللُّغةَ العربيَّة (وقد كان إنكليزيَّ العلم العالي، وهذه ليست مصادفةً أيضًا). بينما نجد أنَّ رؤساء المجالس والوزراء (بمَنْ فيهم القليلُ العلمِ صبري حمادة) أَتْقنوا اللُّغة العربيَّة (باستثناء سامي الصلح الذي ربَّما تعرَّض للتشوش نتيجةً لإلمامه بالتركيَّة، ومن اللاَّفت أنَّ الرجل هذا كان أكثر تحالفًا مع طاقم السياسة التقليديَّة المارونيَّة، وتَخْضع ذكراه لإنعاش سياسيّ على يد إحدى الجرائد لأسباب واضحة). فسياسة ثقافات الطوائف تَخْتلف باختلاف البيئة السياسيَّة والتعليميَّة، لكنَّ هناك تغيُّرًا ملموسًا اليوم في الثقافات اللُّبنانيَّة العامَّة والطائفيَّة، إذ يتمّ طمسُ التعلُّم العربيّ لأنَّ فكرة العولمة تَعْتبر ثقافاتِ الدول الفقيرة غيرَ مفيدة، لا بل مضرَّة. ولهذا تَنْتشر في معظم مدن العالم العربيّ وبعض قراه مدارسُ تُعَلِّم اللُّغات الأجنبيَّة، وخصوصًا الإنكليزيَّة.

إنَّ في محاولة إيقاظ الفرنسيَّة من سباتها ضررًا على الجيل الناشئ الذي (بالإضافة إلى أولويَّة حاجته سياسيًّا وثقافيًّا إلى اللُّغة العربيَّة) يحتاج إلى لغةٍ أصبحتْ عالميَّةَ الاستعمال؛ وهذه ليست اللُّغةَ الفرنسيَّة. وهذا لا يعني أنَّ علينا استبدالَ الفرنكفونيَّة بالأنكلوفونيَّة، أو مناصرةَ هذه الجهة أو تلك في حروب العولمة بين الدول المتقدِّمة. فنحن نَنْتمي، وبشيء من الفخر، إلى عالم الجنوب الرحيب وإنْ كان ينوء اليومَ تحت عوامل استغلال دول الشمال. لكنْ على مَنْ يَنْطلق في اعتناقه للفرنكفونيَّة أنْ يَعْلم أنَّ الفرنسيَّة فشلتْ في اللَّحاق بالإنكليزيَّة في سباق التكنولوجيا والعلوم العالية. وفي الوقت الذي تثار فيه شُبُهات حول كلّ مشروع وكلّ خطة يتساءل المرءُ أيضًا عن خلفيَّة القمَّة الفرنسيَّة وكيف انتهتْ إلينا (نجّانا اللَّهُ من القمم التي لم تُطْعِمْ شعبًا فقيرًا). فهل هناك صفقة سياسيَّة وماليَّة وراءها؟ وكم ستكون أعباءُ البلد الماليَّة من جرائها؟ طبعًا، زيادةُ الدَّيْن لا تُقلقُ بالَ الحريري، الذي لا ينفكّ عن ترداد أنَّ كلّ الدول مديونة؛ وكأنَّ الديون سواء!

وواقع الثقافة في لبنان، أو واقعُ ضحالة ما يسمَّى بـ «الثقافة اللُّبنانيَّة،» لا يأتي عفوًا، كما لا تأتي الثقافةُ عفوًا في أيّ بلد.

فالثقافة، كما وضّح الفيلسوف الألمانيّ ثيودور أدورنو، هي نتاج «صناعة الثقافة.»[1] وصناعة الثقافة هي مثلُ صناعة الأحذية والسيارات: فهي في المجتمع الرأسماليّ تَحْتاج إلى عمّال وإلى مصانع وإلى تسويقٍ وتعليبٍ وترويجٍ ودعايةٍ، بالإضافة إلى «قولبة الأذواق» حتى تستسيغَ ما يتمّ تعليبُه للرجال والنساء. ولا يُمْكن التقليلُ في الحديث عن الثقافة في لبنان، وعن طغيان إيديولوجيا الفرنكفونيّة، من دور المدارس الخاصة والإرساليّات وأدوارِ أجهزةِ صناعة الثقافة، خصوصًا جريدة **النهار** والأخوان رحباني ـ والأخيران مسؤولان إلى درجة كبيرة عن الدرك الذي وصلته الثقافةُ المتنافرة في بلادنا. ويُمْكن القولُ إنّ جريدة **النهار**[2] في أجهزتها المختلفة (من المطبوعات المصوَّرة التي تتلقّى عقولَ أطفالنا طريّةً، إلى «دار النهار،» فإلى الجريدة التي لاتزال للأسف هي الأكثر مبيعًا مع أنّ مسؤولهَا الجديدَ يفوق والدَه في طائفيّته وفي يمينيّته ويفوقه أيضًا في سوء استعماله للُّغة)[3] هي رائدة في صناعة الثقافة «اللُّبنانيّة» خصوصًا في النصف الثاني من القرن العشرين. فهي التي قرَّرتْ ما هو المستساغُ من الشعر وما هو مرُّ المذاق، وهي التي قرَّرتْ ما هو الفنُّ وما هو المقوتُ من النتاج الفنيّ، وهي أيضًا رفعتْ سعيد عقل والرحابنة إلى مصاف الآلهة. والحديث عن صناعة الثقافة في لبنان يحتاج إلى فهم تفاصيل بناء الثقافة عبر السنوات بالاتّفاق مع أجهزة صناعة الثقافة، لا على الطريقة المؤامراتيّة بل نتيجةَ توافقٍ إيديولوجيّ حقيقيّ يَهْدف إلى تنشئة الشعب على الولاء لنموذجٍ ما «للوطن» ـ وهذا النموذج يمثّل تطلُّعاتٍ طبقيّةً وطائفيّةً لا تتّفق بالضرورة مع طموحات اللبنانيّين واللبنانيّات في السِّلْم والرفاه.

وأخيرًا، ولكَيْ نتعامل مع الواقع البشع كما هو، فإنّ علينا الاعتراف بأنّ القمّة الفرنكفونيّة ستُعقد، وبأنّ الجماهير ستَحْتشد، وبأنّ الحكومة ستعلِنُ فتحًا مُبينًا، وبأنّ الظرفاء والظريفات من نخبة المجتمع البورجوازيّ سيتباهون ويتباهين بحسن نُطقهم ونطقهنّ للُّغة الفرنسيّة. أمّا الدَّيْن فسيتراكم، وأمّا الثقافة فستَنْحدر، وأمّا الشعبُ فسيَسْهل خداعُه كالعادة، وللأسف. ذلك لأنّ خداع الجماهير ـ كما شَرَحَ أدورنو ـ إنّما هو صِنْوٌ لصناعة الثقافة!

**كاليفورنيا**

**أسعد أبو خليل**

كاتب لبنانيّ. أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة ولاية كاليفورنيا ـ ستانسلاس، وباحث في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. يصدر له عن دار الآداب قريبًا كتابٌ عن العولمة. وهو مؤلِّف كتاب:

**Historical Dictionary of Lebanon** (Lanham, MD: Scarecrow Press, 1998).

١ ـ Theodore Adorno & Max Horkheimer, **The Dialectic of Enlightenment** (N.Y.: Continuum, 1994), p. 120 - 167.

٢ ـ للتعرُّف على آراء جريدة **النهار** اليمينيّة، ولاسيّما آراء غسان تويني ولويس الحاج، أنظرْ كتابَ الأخير: **من مخزون الذاكرة** (بيروت: دار النهار، ١٩٨٣).

٣ ـ يقول غسان تويني، الذي نصبّه نوّاف سلام فيلسوفًا في مقدّمة كتاب الأوّل **محاضرات في السياسة والمعرفة** (بيروت: دار النهار، ١٩٩٧، ص ٩٠)، ما يلي: «ولولا الأستاذ لويس الحاج لما كتبتُ جملةً صحيحة لأنّي كنتُ أَجْهل كلّ قواعد الصرف والنحو، ولا أزال.» أُنظرْ: غسان تويني، **سر المهنة وأسرار أخرى** (بيروت: دار النهار، ١٩٩٥، ص ١٠٨).

# أرقام الآداب

إعداد: ك.ش.

عدد الأشخاص في العالم الذين يتحدّثون الفرنسيَّة لغةً أولى، أو ثانية، أو في مجال الأعمال: ١٧٠ مليونًا فقط
مرتبة اللُّغة الفرنسيَّة لغةً أُمّاً من بين لغات العالم: ٩

عدد السنوات التي واصلت «الأكاديميَّة الفرنسيَّة» الحفاظَ فيها على «لغة موليير» في مواجهة «التعدّيات الخارجيَّة»: ٣٦٦
نسبة المداخل اللغوية الجديدة الآتية لأوّل مرة من الدول الفرنكفونيَّة والمدْرجة في قاموس هاشيت للفرنكفونيَّة عام ٢٠٠٠: ٨,٦٪
عدد الاصطلاحات الإنكليزيَّة المرصودة لأن تُطْرد من الاستخدام الفرنسيّ التقنيّ عام ٢٠٠٠ بناءً على توصيات «لجنة الاصطلاح الفرنسيَّة»: ٨٠٠٠

عدد الكلمات الفرنسيَّة التي استعملها الفرنسيّ باسكال لامي (المفوّض التجاريّ لدى الاتّحاد الأوروبيّ) للردّ على أسئلة النواب الفرنسيِّين المطروحة بالفرنسيَّة في منظّمة التجارة العالميَّة عام ١٩٩٩: صفر

نسبة الدول الفرنكفونيَّة المؤسِّسة عام ١٩٧٠ التي كانت في السابق تحت الإدارة أو السيطرة الفرنسيَّة: ٧٦٪

عدد أعضاء المنظّمة العالميَّة للفرنكفونيَّة الـ ٥٥ الذين يتحدث ١٠٪ أو أكثر من شعوبهم الفرنسيَّةَ لغةً أولى أو بشكلٍ يوميّ: ٨
نسبة الأعضاء الـ ٥٥ الذين يتحدث ١٪ أو أقلّ من شعوبهم الفرنسيَّة لغةً أولى أو بشكلٍ يوميّ: ٤٦٪

نسبة التمويل الذي تتحمّله فرنسا وحدها لنشاطات المنظّمة العالميَّة للفرنكفونيَّة: ٨٠٪

عدد المراكز الثقافيَّة الفرنسيَّة في العالم: ١٤٩٠؛ عدد المراكز الثقافيَّة البريطانيَّة في العالم: ١٦٠؛ عدد المراكز الثقافيَّة الألمانيَّة في العالم: ١٢٩

عدد الكتّاب الفرنكفونيِّين، باستثناء ليوبول سنغور، الذين يُفْترض بأساتذة «الليسيه» أن يَدْرسوهم: صفر

نسبة السلع الثقافيَّة (أي البضائع التي تستند إلى اللُّغة) إلى كل الصادرات العالميَّة عام ١٩٩٨: ٢٠٪
نسبة الدول الفرنكفونيَّة المنخرطة في التبادل الثقافيّ العالميّ أعلاه: ٧٪
نسبة الموسيقى غير الفرنكفونيَّة من مجمل الموسيقى التي تستوردها الدولُ الفرنكفونيَّة: ٨٠٪

الميزانيَّة التي رُصدتْ عام ١٩٩٩ بالفرنك الفرنسيّ لفيلم «أستريكس وأوبليكس في مواجهة قيصر» الذي اعتُبر رمزًا للمقاومة الفرنسيَّة للهيمنة الأميركيَّة: ٢٧٤ مليونًا

نسبة الطلاّب اللبنانيِّين في العام الدراسيّ ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧ المنخرطين في مدارس تعلّم الفرنسيَّة: ٦٩,٥٪
نسبة الطلاّب الجدد المنخرطين عام ١٩٩٦ في مؤسَّسات في لبنان تعلّم باللُّغة الفرنسيَّة، إلى مؤسَّسات تعلّم باللُّغة الإنكليزيَّة: ١ إلى ٣
نسبة طلاّب مدرسة «الليسيه الكبرى» في بيروت الذين توجّهوا بعد تخرُّجهم منها إلى جامعات ومؤسَّسات تعلّم بالإنكليزيَّة عام ١٩٩٨: حوالى ٣٩٪

نسبة البثّ التلفزيونيّ اللبنانيّ بالفرنسيَّة: ٧,٥٪

نسبة اللبنانيِّين الذين زاروا صالون الكتاب الفرنسيّ في بيروت عام ٢٠٠١: ٢,٥٪

كلفة بناء الجناح المخصَّص في مطار بيروت لاستقبال الشخصيَّات الكبيرة من الدول الأربعين المتوقّع حضورهم الى القمة الفرنكفونيَّة وتزيينه بألوان الفرنكفونيَّة: ٣,٥٠٠,٠٠٠ دولار أميركيّ

نسبة رجال الأمن الموجودين حراسةَ الحضور في قمّة الفرنكفونيَّة، إلى الحاضرين المتوقّعين: ٢ إلى ١

نسبة الأفلام الأميركيَّة المعروضة في لبنان عام ١٩٧٠ إلى الأفلام الفرنسيَّة: ٣٥ إلى ١١
نسبة الأفلام الأميركيَّة المعروضة في لبنان عام ١٩٩٥ إلى الأفلام الفرنسيَّة: ٨٥ إلى ٢

نسبة غير المسيحيِّين من الكتّاب الفرنكفونيِّين اللبنانيِّين في قائمة ألكسندر نجّار: أقلّ من ١٢٪

مَرْتبة فرنسا من بين الدول المصدِّرة إلى لبنان عام ٢٠٠٠: ٢
مرتبة لبنان من بين الدول المصدِّرة إلى فرنسا عام ٢٠٠٠: ١٠٧

المصادر: راجع ص ١١٩ من هذا العدد